حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com
دورية تصدر كل شهرين
السنة الرابعة عشرة / (يوليو - أغسطس) ٢٠١٩
73
Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | July - August 2019

ستائر القدرة

تجلَّتْ بكَوْن الله آياتُ قدرتهْ
ولو قال كن سيكون من فيض عِزَّتهْ
وذِي صنعةُ البَاري تلألأ نورُها
وعنْ بُعدِ خُطْواتٍ بَدائعُ "جَنّتهْ"

***

٢ أنفاس القلب
فتح الله كولن

٥ عالم الأحلام حقيقة أم أوهام؟
د. محمد السقا عيد

١٧ فتح الله كولن والتصوف
توماس ميشال

ريشة الفكر

يصدر العدد الثالث والسبعون (٧٣) من "حراء" متوَّجًا بمسيرةٍ دامت أربعة عشر عامًا. وهو عدد يتحلّى -ككل الأعداد- بسطورِ أقلامٍ تَضرب بريشة الفكر على أوتار القلوب، لتستخرج منها أنقى النغمات وأعذب المعاني والعبارات، وبالتالي لتنتعش الأرواحُ المولعة بالعلم والمعرفة، والقلوبُ التواقة إلى إحياء أنفاسها من جديد. وفي هذا المناخ النقي والمشاعر الصافية، يَضرب الأستاذ فتح الله كولن بريشة فكره على وترٍ حساس سمّاه "أنفاس القلب". إنه في افتتاحية هذا العدد، يضع صورة ساطعة عن أنفاس القلوب، ويرسم ملامح أصحابها المهيبة وبياناتهم الصامتة المؤثرة التي تتدفق إلى الأرواح وكأنها قطرات ندى.

وعن عالم الأحلام وحظه من الحقيقة، وهل الأحلام تحمل إشارات من المستقبل؟ وما علاقة الأحلام بهوية الإنسان؟ وأسئلة أخرى مهمة، يحاول "محمد السقا عيد" تفسيرها في ضوء الدراسات والأبحاث العلمية التي أوردها في مقاله الموسوم بـ"عالم الأحلام حقيقة أم أوهام؟".

كما يتحدث "إسحاق السعدي" عن أزمةٍ ما زالت تعوق التواصل وتعمق الفجوات بين بني البشر وهي "الأزمة الفكرية في الحوار"، ذاكرًا أن "الوقوف على أوجه هذه الأزمة وتشخيصها، يسهم إلى حد كبير في علاجها وتلافي مسبباتها ليحلّ التفاهم محلّ التدابر، ويحكَّم العقل والمنطق لا العصبية والانفعال، ومن ثم تسود مشاعر الود بدلاً عن التنابز والتنافر".

ويصبّ مقال "خالد صلاح حنفي" في الاتجاه نفسه، حيث يرى أن العيش المشترك والتسامح الحضاري في الآونة الأخيرة يمران بأزمة أخلاقية طاحنة، مما يدعو إلى الاعتراف بأهمية التعايش معًا وتأثيره العميق على حضارة الإنسان وهو أول الطرق للبحث عن حلول عقلانية.

أما "السنوسي محمد السنوسي" فإن لمقاله الموسوم بـ"من شروط الإقلاع الحضاري" إسهامًا في تأصيل المضامين الفكرية المتعلقة باستئناف إقلاعنا الحضاري من جديد. ويعلّق "توماس ميشال" في مقاله، على علاقة الأستاذ فتح الله كولن بالتصوف، وبالتالي على دور التصوف ومرجعيته من حياته وحياة كثير من المجددين والمصلحين.

"إن ما يهم الإنسان في واقعه العلمي، هو التأسيس والتأصيل وليس التفكيك والتقويض" وهذا ما جاء في ثنايا سطور "سامي محمود إبراهيم" "اللامعقول وحداثة الوعي". أما "سعيد سهمي" فيحدثنا عن عالم الرقمية ودوره في نشر الوعي والمعرفة، ثم إسهام الرقمية في محو الأمية وبناء شخصية الإنسان المعاصر، كل ذلك تحت عنوان "كيف تسهم الرقيمة في محو الأمية؟".

إلى جانب مقالات قيمة لم يسعنا ذكرها في هذه السطور القليلة نحيلها إلى قرائنا الأعزاء، آملين أن يجدوا متعتهم الفكرية والثقافية والعلمية فيما بين أيديهم. ■

المحتويات

أنفاس القلب / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
أرض الأمان / حراء (ألوان وظلال)	٤
عالم الأحلام حقيقة أم أوهام؟ / د. محمد السقا عيد (علوم)	٥
الأزمة الفكرية في الحوار / د. إسحاق السعدي (قضايا فكرية)	٩
التعايش خيار أم ضرورة؟ / د. خالد صلاح حنفي (قضايا فكرية)	١١
من شروط الإقلاع الحضاري / السنوسي محمد السنوسي (قضايا فكرية)	١٤
فتح الله كولن والتصوف.. أية علاقة؟ / توماس ميشال (قضايا فكرية)	١٧
النواة الأولى للمكتبة الإلكترونية / أحمد مصطفى الغر (علوم)	٢٢
اللامعقول وحداثة الوعي / د. سامي محمود إبراهيم (قضايا فكرية)	٢٦
دَرْب سدرة المنتهى كما لا ح للفرنسي رينيه غينو / عز الدين عناية (قضايا فكرية)	٣٠
لستَ وحيدًا / سمر فتحي (قصة)	٣٣
كيف تسهم الرقمية في محو الأمية؟ / سعيد سهمي (علوم)	٣٤
إشراقة الروح / أ.د. بركات محمد مراد (أدب)	٣٨
كيف يزداد الإنسان ذكاء؟ / د. أنس بنيونس (علوم)	٤١
التواكل الحضاري / د. خالد راتب (قضايا فكرية)	٤٤
الأجهزة الإعلامية وبناء الشخصية المتكاملة / عبد الحميد الراوي (تربية)	٤٦
هل يمكن العيش بدون الجبال؟ / د. ناصر أحمد سنه (علوم)	٤٩
التحيز ونقد الحداثة الغربية عند عبد الوهاب المسيري / حمزة الوهابي (قضايا فكرية)	٥٣
دواء اسمه الضحك / خلف أحمد أبو زيد (علوم)	٥٧
نبض التاريخ / حراء (ألوان وظلال)	٥٩
منظومة القيم من خلال وصية لقمان / د. محمد علي الدراوي (تربية)	٦٠

أنفاس القلب

أنفاس القلب ليس لها حروف ولا كلمات، ولكننا نستمع منها إلى أبلغ البيانات تأثيرًا وأعذب الألحان سحرًا. إن أنفاس القلب لم تلهج بها الألسنة بعدُ ولم تطرق الأسماعَ ولم تتعرف على أسنان الأقلام ولا لوحاتِ المفاتيح، لكنها فوق كل هذه السبل تعبّر عن نفسها بلغة بهيّة راقية؛ فأصحاب هذه الأنفاس لا يجدون حاجة إلى كتابة أو خطّ على الأوراق، ومن يفهمون لغتها لا يضطرون إلى البحث عن بيانٍ أبلغَ وأوقعَ منها.. فلو أن الأدباء الذين يحاولون التعبير عن أنفسهم بأرقى ضروب الفصاحة والبيان، ولو أن المتفذلكين الذين يتقلبون بين ديماغوجية وأخرى -للتأثير على الجماهير- أدركوا ما لأنفاس القلب من هذا السحر الغائر العميق؛ لَمَا أنفقوا أعمارهم في طرق ملتوية محفوفة بالمخاطر، وَلَتوجَّهوا بدلاً من ذلك إلى صدورهم، ولضربوا بريشة الفكر على أوتار قلوبهم، وحاولوا أن يستخرجوا منها النغمات.

ولكن وا حسرتاه! فالعصر هو عصر الصخب والضجيج، وكأن الناس يحاولون التعبير عن أنفسهم بلسان تلك الضوضاء.

أجل، إن العالم من أقصاه إلى أقصاه يَعِجُّ بأنكر الأصوات، فالحافلات والقطارات والترامات والجرافات والباخرات والطائرات والإذاعات والتلفزيونات وغيرها من الوسائل التي نعتبرها من روائع الحضارة الحديثة، لم تقتصر على تلويث بيئتنا وخرقِ راحتنا وطمأنينتنا، بل جعلَتْنا نحن نُشبِهها.. فقد باتت ألسنتنا اليوم سابقة على قلوبنا، وأصبحت أصواتنا تواكب هذا العجيج العام؛ لدرجة أننا لم نعد في حاجة إلى الآلات التي تثير الضوضاء، فأصبحتْ بلادنا بتمامها وكأنها بلاد الطُّرْشان،

فهنا وهناك سيلٌ من المتصارخين، وكأننا نسعى إلى أن نقمع الآخرين بأصواتنا، ولم يَعُد هناك احترام للفكر ولا توقير للمشاعر الإنسانية، بل أُسند النجاح إلى من يُطلقون الصرخاتِ على نطاق واسع وكوفئوا على الثرثرة والتبجح والألاعيب الكلامية، وليس من المهم أن يثمر ما يقولونه أو يفعلونه، ولا أن يطابقَ أيّةَ قاعدةٍ منطقية، بل المهم والمطلوب هو أن يجلبوا الصراخ والضجيج، ويحرّكوا الجماهير ويستثيروهم.

لقد كان الصمت والهدوء قديمًا يمثّلان سجيّتنا المُثلَى ومُناخنا الدائم، ولربما كان الكثيرون لا يَفطنون حينذاك لقيمة تلك الطمأنينة ونغمتها الهادئة، كما لا يَشعرون اليوم أيضًا بهذه الضوضاء الصاخبة.. فلم يكن يُسمَع في تلك الآونة وفي ذلك المناخ الهادئ غيرُ الأصوات الطبيعية التي كانت تتناهى إلى الأذن وكأنها شعر أو موسيقى، وبمرور الأيام استقرّ هذا الوضع في أرواح هؤلاء الذين تغشاهم الأصواتُ الطبيعية كل يوم، حتى صار إقليمهم لا يعرف شيئًا اسمه التلوث الضوضائي، ولا يأبه أحد من أصحاب هذا الإقليم بصياح أو صراخ، وقد كان كل مكان يمتلئ ويفيض بالسكون العميق، ويأخذ الجميع يتنسم الهدوء، وكان يهيمن في ذلك الإقليم السكونُ المفعم بالاحترام والتقديرِ، لدرجة أن من يمرّ على هذا الإقليم مرة، ويرتشف من هدوئه جرعة أو جرعتين، يشقّ عليه الرحيل عنه مرة أخرى.

لم يكن الناس في تلك الفترة قد تعرفوا بعدُ على روائع الحضارة الحديثة، ولا علمَ لهم بفنون هذه الأشياء الثرثارة؛ حيث كان الهدوء يَسُود كل مكان، وكان حال هؤلاء الناس يتوافق تمامًا مع هذا الجو العام؛ أينما ذهبوا أو ارتحلوا يرتشفون هدوءًا صافيًا صفاء اللبن، ويتلقون إشاراتِ السكون ممن يمرون عليهم.

فهؤلاء السعداء الذين قضوا أعمارهم في لدنيّةٍ بعيدة تمامًا عن كافة أنواع البذاءات والوقاحات، كانوا يعبّرون عن سكوتهم دائمًا بأداء مختلف ولهجة مختلفة وفي جوّ مختلف، حتى إن الضوضاء الخارجية التي نادرًا ما كانت تنشأ حولهم، لا تَقوى مطلقًا على الإخلال بالتناغم الشِّعري لهذا الهدوء.

كان هؤلاء لا يتحدثون إلا عندما تقتضي الضرورة، غير أن حديثهم كان موجّهًا -على الأكثر- إلى تبسيط الحقائق الغامضة وشرح المشاعر الخفيّة؛ بُغيةَ الكشف عن المعاني التي انسابت من أحوالهم.. فكانت أفواههم منغلقة باستمرار، فإنْ فتحوها قدّموا إلينا نسيج أفكارهم الذي حاكوه حال سكوتهم، وعرضوا على مستمعيهم أروع درر الحِكَم من بلورات الهدوء الفكرية.

إن أصحاب أنفاس القلب لا يتحدثون إلا عندما تقتضي الضرورة، غير أن حديثهم يكون موجّهًا إلى تبسيط الحقائق الغامضة وشرح المشاعر الخفيّة؛ بُغيةَ الكشف عن المعاني التي انسابت من أحوالهم.

لم تكن تُسمَع في هذا المناخ النقيّ ضوضاءُ منكَرة ولا صوتٌ خشن، ولا تَخرِق جوَّه المتلألئَ شرارةٌ ما، فإن حدث وخَرَق هذا الجوَّ صوتٌ أو نَفَسٌ غريبٌ، انتفض هؤلاء الناس على الفور وتداركوا الأمر وكأن جوّهم الفاتن قد تَجدّد بسحرٍ ما، وعادوا إلى حالتهم الأصلية، وشرعوا في تمرين أنفسهم من جديد، فتنتعش جميع الأرواح التي قد يَصلون إليها بالخطابات الصامتة التي تشبه إلهامات الملائكة ويعبّرون عنها بألسنة قلوبهم، وحينذاك يقول الذين سعِدوا بالتعرف على هؤلاء: رَأَينا وشَعَرْنا وسُحِرْنا ونضجنا، بدلاً من أن يقولوا: سمعنا واستمعنا وقرأنا وتَعَلَّمْنا وصدَّقنا.. وبفضل هذه الميزة التي اكتسبوها بعمق أحوالهم وقلوبهم، يأخذ الجميع يفهمُ -بارتياح- ما يقصده هؤلاء، وينبهرون بهم سواء عرفوا لغتهم أم لم يعرفوها.

وإلى جانب اختلاطهم بالناس فإنهم عندما كانوا يَنْزَوُون في ناحيةٍ لمحاسبة أنفسهم، تحترق القلوب من لظى سيماهم وأحوالهم، وتسمَع الأرواح أصواتهم وكأنها نفخ في الصور.

إن هؤلاء الأطهار كانوا على صلة دائمة مع ربهم ﷻ، وكان صمتهم بمثابة الأوامر لدى الناس الذين يخلُدون إلى صمت قلبي وروحي لأسرار لا ندرك كنهها.. وعندما كانوا يَكشفون بسلوكياتهم وتصرفاتهم عن الكنوز المخفية في قلوبهم، تنحل في تلك اللحظة عديد من

hiragate.com

الألسنة إزاء صمتِ لسانٍ واحد، فتَشرَع القلوبُ الحيادية في الإنصات، ويسيطر عليها الانفعال من كل جانب.

لقد كان صمت هؤلاء موسيقى عميقة إلى حد بعيد تُطرِب الأرواح، وتَسُوق كلَّ الذين يعيشون في هذا الجو وتجذبهم إلى الناحية التي تريدها، وتصدح لهم بنغمات لم يسمعوها من قبل، وتهيئ لهم مفاجآت لم يتوقعوها.

أمّا مَن حولهم فكانوا يستفيدون كثيرًا من خطاباتهم الصامتة، ويتجولون في الآفاق الرحبة التي تدور فيها مضامينهم ومفاهيمهم وخطاباتهم المختلفة التي لا تضيق بالبيانات والتعبيرات، ويعيشون عمقًا على مستوى قلوبهم.

أجل، لقد كان لهؤلاء الصامتين أحوال تجعل مَن يرى الأنوارَ التي تقذفها نظراتهم، والمعانيَ التي تَعكسها ملامحهم، والعمقَ الكامن في أفعالهم الخفية، يُسحر بهم على الفور ولا يودّ فراقهم أبدًا.

كان هؤلاء الذين امتلؤوا وتشبّعوا بهذا الصمت الشاعري، يَشعرون شعورًا مختلفًا تجاه كل شيء، انطلاقًا من الزاوية التي يحددها الفكر الديني والمنطق الإيماني، ويَبلُغون درجة أكبر في الاستمتاع بمشاهدة الحقائق والأشياء.

إنني شخصيًّا لم أستطع أن أتعرف حق المعرفة على هؤلاء الصامتين المؤثّرين العظام على مستوى يمكنني أن أسميه "الإدراك"، فلا أقول أيضًا: إنني استفدت منهم كما ينبغي، ولكنني أعترف أنني رغم عجزي وتقصيري كمتلقٍّ، كنت أَشعر وأرى أحيانًا -وأنا بينهم- أمورًا مبهمة تارة ومستعصية على الفهم تارة أخرى، تتدفق إلى روحي وكأنها قطرات ندى، وتسحرني على الدوام، حتى إنني ما زلت أقشعر منها كلما ذكرتها رغم مرور عدة سنوات.

ورغم كل شيء فقد سَحَرتْني البيانات الصامتة لهؤلاء الصامتين الخاليةُ من الحروف والكلمات، حتى إنني كلما ذكرت هذه الوجوه النيّرة اليوم، فاضت عيناي وبدأتْ روحي تسمع نغماتٍ تنبثق من هذا الصمت العميق، وأحاول أن أتجاوز حدود طبيعتي، وأغوص في خيالات المرحلة التالية للمرحلة التي بلغتُها. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية تحت عنوان: Kalbin Solukları، العدد:٣٠٨ (سبتمبر ٢٠٠٤). الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

أرض الأمان

إنْ كنتَ تبْني عالـمًا فوق المياهْ
بكَ سوفَ يرْمي الموجُ في أيّ اتجاهْ
فانظرْ ثباتَ الأرضِ وافحصْ دربَها
كي لا تُشَتَّتَ في مجاهيلِ الحياهْ

***

د. محمد السقا عيد*

عالم الأحلام حقيقة أم أوهام؟

إذا كان المتنبئون بالأمس يقولون "أَخبِرْنا عن أحلامك نخبرك عن مستقبلك"، فإن أطباء النفس يقولون اليوم: "أَخبِرْنا عن أحلامك نشخّص لك داءك". فالبعد النفسي يرى أن الأحلام هي وسيلة تلجأ إليها النفس لإشباع رغباتها المكبوتة، خاصة التي يكون إشباعها صعبًا في الواقع. إذن، لماذا نحلم؟ وما الذي يحدث داخل الدماغ أثناء الحلم؟

بينت بعض النظريات أن الأحلام تعالج فينا الصدمات النفسية التي نتلقاها في يقظتنا، وهذا ما ذهب إليه "كارل يونج" من أن الأحلام تقدم حلولاً لمشكلات الإنسان في محاولة لإعادة التوازن الداخلي، ومثال ذلك أنه إذا نجا الإنسان من حريق، فإنه غالبًا ما يحلم به في تلك الليلة، وهي وسيلة أودعها اللهُ الإنسانَ لتعينه على سرعة التشافي والعلاج من صدمات

الحياة اليومية والتكيف مع حوادث الدنيا، فتخفف عنه وطأة الصدمات والكوارث حتى لا يفقد صوابه.

نظرية أخرى أشارت إلى أن النوم والأحلام طريقة لإعادة ترتيب وتنظيم الملفات في الدماغ وطرح المعلومات التي لا معنى لها، أي أنها بمثابة تنظيف بنك المعلومات في الدماغ، وفيه يتم تنظيم الذاكرة وتقوية الروابط بين المعلومات التي قد نحتاجها مستقبلاً، ويتم التخلص من الذكريات غير المفيدة كي لا يزدحم الدماغ.

ونظرية ثالثة ترى أن الأحلام تعطي الإنسان الحرية في اختبارات وتجارب تصرفات أو مبادرات وسلوكيات يصعب تطبيقها في الواقع، فيقوم الدماغ بالربط بين الأفكار والمشاعر.. والقيام بهذه التجارب في الأحلام دون الخوف، من تبعات هذه المحاولات الجريئة.

وهناك من ذهب إلى أن من وظائف الأحلام كذلك، حراسة النوم ومقاومة أي شيء يؤدي إلى إقلاق النائم وإيقاظه من نومه؛ فإذا أحس الإنسان بالعطش أثناء النوم -مثلاً- فإنه سيرى في منامه أنه يشرب الماء، وبهذا يستمر نائمًا ولا يضطر للاستيقاظ لشرب الماء.

إذن، ما تقوم به الأحلام هو بمثابة رسائل من العقل اللاواعي تختفي وراء أفكار أو صور وقصص خيالية، وهكذا يعمل العقل اللاواعي وتحتاج هذه الرسائل لفك رموزها ليفهمها العقل الواعي.

أحلام الماضي ورؤى المستقبل

غالبًا ما يجول النائم في عالم الأحلام والرؤى، فيشاهد الماضي والحاضر والمستقبل، وإذا به أحيانًا يرجع إلى صباه، وتارة يرى نفسه شيخًا طاعنًا في السن، وقد يدخل في حرب مدمِّرة مع عدو واقعي أو افتراضي، أو يرى نفسه وهو يعالج سكرات الموت، أو يرى أن لديه ثروة عظيمة ومكانة مرموقة ينعم بكل خير ويعيش بين الورود والرياحين، أو يرى بعض الأحباء الذين يشتاق إليهم من الأحياء أو الأموات، إلى غير ذلك من المشاهدات العجيبة التي يرتاح الإنسان لرؤية بعضها ويتمنى لو أنها طالت واستمرت من دون انقطاع، كما أنه ينزعج أحيانًا من مشاهدة الكثير من الأحلام المهولة والمفزعة التي من الممكن أن تؤرق نومه وتجعله يستيقظ مذعورًا.

الرؤيا واختلافها عن الحلم

يخلط الكثير من الناس بين الرؤى والأحلام. والحقيقة أن هناك اختلافًا واضحًا بينهما على الرغم من أنهما يشتركان في حدوثهما عند الإنسان في منامه. ويعتبر هذا الموضوع وتفسيراته، من الأمور التي تهم كثيرًا من الناس على اختلاف أعمارهم وأجناسهم. وتكاد لا تخلو أيامنا ممن يسأل عن حلم أو رؤيا رآها، ويبحث عن تفسيرٍ لها، وما إذا كانت تأتي بالبشائر أو تُنذر باقتراب المصائب والمشاكل.

يعرَّف الحلم بأنه ما يشاهده الإنسان في منامه من مشاهد لأحداث تشتمل على أماكن وأشخاص قد تمتّ للواقع بصلة، وقد لا يكون لها صلة به، وهي مجرد خيالات وانعكاسات للعقل الباطن الذي يعمل بقوة وبنشاط عندما يغيب عقل الإنسان ويدخل في مرحلة الراحة.

أما الرؤى فتختلف اختلافًا جوهريًّا عن الأحلام، من حيث إنها تنقسم إلى قسمين؛ قسم يشترك فيه الناس كافة، وهي الرؤى العامة، والمثال عليها رؤيا ملك مصر التي فسرها سيدنا يوسف عليه السلام فتحققت على أرض الواقع، ومنها الرؤيا الصالحة، حيث إنها تعتبر من المبشرات التي تحدث عنها الله تعالى في كتابه كفضيلة امتن الله بها على المتيقن، فقال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾(يونس:٦٤). وقد ورد في القرآن الكريم ذكرٌ لعدّة رؤى؛ كرؤيا يوسف عليه السلام، ورؤيا عزيز مصر، ورؤيا إبراهيم عليه السلام.

هل الأحلام إشارات من المستقبل؟

يحفل التاريخ بالكثير من الحوادث والوقائع التي قد تثبت إمكانية التنبؤ بالمستقبل، ومن أشهر القصص التي تؤكد ذلك رؤيا عزيز مصر للسبع بقرات المشهورة والتي كان لها أثر واضح على اقتصاد مصر لوقت طويل، ورؤيا السجناء الذين كانوا مع سيدنا يوسف في السجن، وقد فسرها سيدنا يوسف وتحققت الرؤيا بأن أحدهم صلب، والآخر أصبح خادمًا عند الملك.

ولم تتوقف قصص الأحلام التي تنبأت بالمستقبل عند هذا الزمن، بل توجد عديد من الأحلام التي

hiragate.com

تحققت في الواقع في العصر الحديث، من هذه الأحلام موت العالم ابن سيرين الذي اشتهر بتفسير الأحلام؛ حيث جاءته سيدة تروي له حلمًا يخصه، وما إن سمعه حتى تغيرت ملامحه، فسألته أخته فقال لها إن هذه المرأة تدعي بأني سأموت بعد سبعة أيام. وبالفعل مات ابن سيرين وتم دفنه في اليوم السابع.

أحلامك وسيلة للتعلم وحل المشاكل

في الأبحاث الأخيرة للبروفيسور "روبرت ستيكجولد" وجد أن النائم يتعلم وهو نائم. أجل، فأنت تعمل على اكتساب مهارات معينة وأنت متيقظ -سواء في دراستك أو في عملك- وعندما تنام يبدأ عقلك البحث في ذكرياتك عما يمكن أن يفيدك لصقل هذه المهارات.. ويظهر ذلك من خلال أحلامك؛ فقد تحلم وترى مشاهد ترتبط بمهاراتك تلك، بالإضافة إلى مزجها بذكريات أخرى مخزنة في مخك. هذه هي الطريقة التي يعمل بها عقلك لكي يجعلك تتعلم وأنت نائم. وعندما تستيقظ قد تلحظ تحسّنًا ملحوظًا في أدائك، لأن مخك أتم مهمته وأنت نائم.

وقد أجريت دراسات لمعرفة مدى سيطرة الحالم على نفسه جسمانيًّا؛ فعرض الدكتور "ريختشاف" مكافآت مالية للمفحوصين لكي يطيلوا الوقت الذي يحلمون فيه، فلم يستطع أحد منهم ذلك إطلاقًا، مما يدل على أن دورة الأحلام مستقلة عن أي تحكم شعوري.

لكنك تستطيع أن تحلم بما تريد. نعم، إذا ركزت قبل نومك في أنك تريد أن تحلم بشيء معين أو مشكلة تود حلها، فربما تجد الحل في أحد أحلامك، ولقد أثبتت هذه الطريقة نجاحها على ٥٠٪ ممن طبقت عليهم التجربة، بل ووجدوا حلولاً لمشاكلهم من خلال أحلامهم أيضًا.

بحثت الدكتورة "ديردرا باريت" أيضًا في الكيفية التي تساعدنا بها الأحلام على حل المشكلات المختلفة، فوجدت أن الأحلام هي الفرصة الأنسب لإيجاد الحلول المناسبة لتلك المشكلات، حيث تمكننا من رؤية الأمور بشكل أوضح أثناء الحلم.

إذن، أحلامك هي وسيلة لتتعلم وأنت نائم، تحل مشاكلك وربما تصبح مكتشفًا أو عالمًا.

بينت الدراسات أن الأشخاص الذين يحلمون في منامهم دائمًا بالسفر والترحال وزيارة الأماكن الجديدة أكثر انفتاحًا على الحياة، ويتمتعون بعلاقات اجتماعية جيدة جدًّا.

هل الأحلام تعبر عن هوية الإنسان؟

يمكن التعرف على شخصية الإنسان من خلال عديد من الجوانب، فكل تصرف قد يعكس طبيعة الشخصية بحسب خبراء علم النفس، حتى إن الأحلام تدخل ضمن هذا الإطار، لأنها تعدّ مرآة الروح إلى العقل الباطن، وذلك وفق ما ذكرته مجلة "ريدرز دايجست" نقلاً عن دراسات علمية.

وقد رصدت جريدة "الإندبندت" البريطانية دراسة قام بها مجموعة من الباحثين في مجال علم النفس بجامعة "ستوكهولم" للكشف عن طبيعة أحلام الأشخاص وسلوكياتهم أثناء فترة النوم. وقد اعتمد البحث على دراسة سلوك الأشخاص أثناء النوم، واشترك في هذه الدراسة ألف شخص، حيث قام الباحثون بدراسة سلوكياتهم وتحركاتهم والأصوات التي يصدرونها أثناء فترة النوم، وأيضًا مقارنة تصرفات الشخص وهو مستغرق في النوم بسلوكياته عندما يكون مستيقظًا.. فكانت النتيجة هي أن الأشخاص الذين يحلمون أثناء نومهم دائمًا بالسفر والترحال وزيارة الأماكن الجديدة أكثر انفتاحًا

بينت بعض النظريات أن الأحلام تعالج الصدمات النفسية التي نتلقاها في يقظتنا، وأن الأحلام تقدم حلولاً لمشكلات الإنسان في إعادة التوازن الداخلي.

على الحياة، ويتمتعون بعلاقات اجتماعية جيدة جدًّا. أما الأشخاص الذين يعانون من تكرار رؤية الكوابيس، فهم أشخاص انطوائيون ويشعرون بالوحدة دائمًا.

وبحسب الدراسة، فإن الأشخاص الذين يرون في منامهم أنهم ينتحرون ويموتون دائمًا، أو أحد الأشخاص المقرب منهم يموت، أو يرون مشاهد الدفن والحزن والصراخ، أو يشاهدون الحرائق في المنام.. هؤلاء الأشخاص يعانون من اضطرابات دائمة في حياتهم، وهذا يدل على بداية دخولهم في مرحلة اكتئاب مرضية، لذلك عليهم أن يتوجهوا إلى الطبيب النفسي.

أحلام غيرت العالم

سوف تندهش إذا علمتَ أن الأحلام كانت هي السبب الرئيسي في حصول اثنين من الحالمين على جائزة نوبل. كما كانت الأحلام هي الدافع وراء العديد من الأحداث السياسية الهامة، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الروايات والقصص والأفلام السينمائية الشهيرة. ويقال إن الجدول الدوري للعناصر الكيميائية قد جاء إلى العالم الروسي "ديمتري مندليف" في أحد أحلامه. كذلك فإن المخترع الأمريكي "إلياس هاو" قد اخترع أول ماكينة خياطة من فكرة استوحاها من أحد أحلامه. أما الكاتبة "ماري شيلي" فقد رأت أحداث روايتها الجديدة "فرانكنشتين" في أحد أحلامها. ويورد الكاتب "روبرت لويس ستيفنسون" أن معظم مكائد قصصه كانت تأتيه في الأحلام.

وقد أورد الأستاذ عبد الرازق نوفل -رحمه الله- في كتابه "القرآن والعلم الحديث" ما يلي: وقرر كثيرون أنهم قاموا بأروع أعمالهم عندما شاهدوها في أحلامهم، مثل الموسيقار "آرثر سيمور سوليفان" الذي ألف أغنيته المشهورة "النور الساطع" في نومه، "وجوثيب تارثيني" الذي يقول إنه سمع في نومه كأن الشيطان يغني، فما إن صحا من نومه حتى كتب اللحن وسماه "أغنية الشيطان". والرياضي "هنري بوانكاريه" رأى معادلات جبرية أدت إلى اكتشافه قانونًا هامًّا رياضيًّا.

عجز العلماء

إن ما يراه الإنسان النائم من رؤى، وما يأتيه من أخبار وأوامر، تعتبر من الألغاز القديمة والتحديات الباقية للعقل البشري ولكل ما أوتي الإنسان من وسائل المعرفة والبحث.. ولا تزال الأحلام خافية حتى على العلماء ذوي الاختصاص. نعم، لا زالت إلى الآن، وباعتراف الكثير من العلماء ذوي الاختصاص، يجهلون حقيقة الرؤى والأحلام، لذا فإنك ترى أن نظرياتهم العلمية مختلفة في تفسير مشاهدات الإنسان أثناء نومه.

وقد شرَّق المحللون وغرَّبوا بحثًا عن أسباب الأحلام وماهيتها، ورغم أن الإنسان يقضي ساعتين في الأحلام كل ليلة (أي ما يعادل حوالي ستة أعوام خلال حياته)، إلا أن عالم الأحلام ما زال من أكثر الأمور غموضًا بالنسبة لنا. إنه عالم كان -وما زال- مثار اهتمام الإنسان على مر العصور والأزمان.

ويتابع العلماء بأجهزتهم ومراقبتهم الشخصية ما يحدث أثناء النوم فلا ينتهون إلى شيء، غير تسجيل بعض التغيير في النشاط الكهربي للدماغ، وبعض التغيرات في نبض النائم وتنفسه وبعض عضلاته، وغير ذلك مما لا يعطي أدنى فكرة عن طبيعة ما يراه النائم أو عن أسبابه، ويستمر التحدي. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

د. إسحاق السعدي*

الأزمة الفكرية في الحوار

يتعاني كثير من منابر الثقافة وساحات الحوار أزمة فكرية تعوق التواصل وتعمق الفجوات، ولعل الوقوف على أوجه هذه الأزمة وتشخيصها، يسهم إلى حد كبير في علاجها وتلافي مسبباتها ليحلّ التفاهم محلّ التدابر، ويحكَّم العقل والمنطق لا العصبية والانفعال، ولكي تسود مشاعر الود بدلاً عن التنابز والتنافر. ومن أبرز أوجه هذه الأزمة:

أولاً: غياب بعض أبعاد القضية مدار البحث والحوار حين النقاش والتحاور، والتركيز على قضايا أخرى عادةً ما تخرج بالحوار عن مساره الموضوعي، أو هي خارج إطار الموضوع أساسًا، بينما الأبعاد الغائبة أو المغيبة هي الألصق بالقضية المطروحة ولها الأولوية، وهي لب الموضوع وجوهر القضية، فيدور الحديث بطريقة تتسم بالتسطيح والاستهلاك، مما يثير التساؤل عن الأهداف غير المعلنة لذلك الحوار وتلك المناقشات، والأسوأ من ذلك سطوة الذرائعية من أحد طرفي الحوار أو من كليهما. إدارة الحوار والنقاش حول قضايا افتراضية ومستقبلية بطريقة سلبية، تُشغل عن الحاضر وأزماته ومشكلاته الحقيقية بالتنازع والخلاف على تأويل الموروث.

ثانيًا: الخلل في المنهجية من حيث طريقة التناول، كأن يقاس أنموذج بأنموذج آخر، أو واقع بواقع آخر دون الأخذ بعين الاعتبار الآتي:

• الموازنة بين المتشابهات، فلا يقاس أحسن ما في طرف بما هو الأسوأ في الطرف الآخر، بل يقاس ما في كل طرف بما يقابله في الطرف الآخر. وفي هذا الخصوص نبّه بعض العلماء المسلمين منذ زمن مبكر على منهجية المقارنات والمقايسات، ومتى تكون صوابًا ومتى تكون خطأ، كقول أبي الحسن العامري في كتابه القيم "الإعلام في مناقب الإسلام": "إن تبيان فضيلة الشيء على الشيء بحسب المقابلات بينهما قد تكون صوابًا وقد تكون

خطأ، وصورة الصواب معلقة بشيئين أحدهما ألا يوقع المقايسة إلا بين الأشكال المتجانسة، أعني ألا يعمد إلى أشرف ما في هذا فيقيسه بأرذل ما في صاحبه، ولا يعمد إلى أصل من أصول هذا فيقابله بفرع من فروع ذاك. والآخر ألا يعمد إلى خلَّة موصوفة في فرقة من الفرق غير مستفيضة في كافتها، فينسبها إلى جملة طبقاتها".. ثم يعقب على ذلك بقوله: "ومتى حافظ العقل في المقابلة بين الأشياء على هذين المعنيين، فقد سهل عليه المأخذ في توفية حظوظ المتقابلات، وكان ملازمًا للصواب في أمره"؛ كثيرًا ما يقع الخطأ بسبب الافتئات على هذه المنهجية، فمثلاً حينما تقارن صورة مجتمع من الناحية الواقعية بمجتمع آخر في صورته المثالية -كمقارنة مبادئ الديمقراطية في الغرب ببعض الحقب التاريخية وتطبيقاتها المشوهة- نظر بعض أطراف الحوار للقضية من ناحية المبادئ والقيم، ونظر الطرف الآخر لها من حيث الواقع؛ مما يسبب الخلط في التصورات، وبالتالي يحدث الخلاف بينهما في الأحكام والمواقف فيحتدم الخلاف، وتحدث المغالطات ويتعصب كل طرف لرأيه وموقفه، في حين تقتضي المنهجية فكّ اللبس بين التاريخي الواقعي والمعياري المثالي، لئلا يصبح الحوار خلافًا مفرّقًا، والمناقشة مناسبة للمدابرة.

• عَقْد مقارنات أو محاورات بين أطراف غير متكافئة، سواء من حيث اختلاف التخصصات وصلتها بطبيعة المناقشة، أو من حيث المهارة والقدرة على الحوار، فيظهر طرف بالقوة والبيان، ويظهر الطرف الآخر بالضعف والانهزام خلافًا لحقيقة الأمر.

• عدم رعاية الخصوصيات الذاتية والتاريخية -سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات- من حيث العقائد والعادات والتقاليد والأعراف التي يفترض النظر لها بإيجابية واحترام، والنظر إليها بمنظور الإثراء والتعددية والتنوع.

ثالثًا: الضعف في أخلاقيات الحوار، ومما يلحظه المتابع للزخم الإعلامي الحديث، الضعف المتزايد في أخلاقيات الحوار، ومن مظاهر ذلك:

أ- عدم إتاحة الفرصة الكافية لتوضيح فكرة المتحدث وشرحها بما يكفي، لفهمها كما يقصد.

ب- إلزام المتحدث بمفهوم السامع لقوله دون تحري المطابقة بين قوله وفهم السامع أو أخذ موافقته على هذه المطابقة.

جـ- تحميل القول أو توجيهه لوجهة قد لا تكون المقصودة.

د- إعمال المعنى المرجوح على المعنى الراجح، بل الفهم المرجوح على الفهم الراجح في بعض الأحيان.

هـ- إساءة الظن والحكم على النوايا بما لا يتفق والأخلاقيات المعتبرة.

رابعًا: المواجهات المفتعلة ذات الطابع الذي يتسم بالآتي:

١- إدارة الحوار والنقاش في قضايا تاريخية طواها الزمن، ولا جدوى من بحثها وإظهارها إلا في المجالات المتخصصة، وفي سياقات أخرى بعيدة عن قضايا الحوار الحيوي المأمول.

٢- إدارة الحوار والنقاش حول قضايا افتراضية ومستقبلية بطريقة سلبية تُشغل عن الحاضر وأزماته ومشكلاته الحقيقية، بالتنازع والخلاف على تأويل الموروث.

٣- المواجهة بين جهلين، أعني جهل طرف بما يعرفه الطرف الآخر، كأن يجري الحوار حول قضية تقوم على ناحية تأصيلية وأخرى نقدية، فأحد المتحاورين ضليع في التأصيل، والآخر ضليع في النقد، لكنهما حين الحوار أهمل كل واحد منهما الجانب الآخر؛ لذلك احتدم النزاع وتمت المواجهة بين جهلين.. ولو أفاد كل طرف من علم الآخر وخبرته لتكامل النظر للقضية، وساد الود والاحترام بينهما.

أما المعالجات فيمكن أن تتم من خلال تقييم هذه الأوجه وتقويمها ووضعها في إطارها الصحيح، وإقامتها على الوجه اللائق بالحوار وأصوله وأخلاقياته، كذلك استحضار جميع الأبعاد في بحث أي قضية أو معالجة أي إشكالية، أو التخطيط للمستقبل بحيث تتحقق الموازنة والتكامل والعمق، وينتفي الاجتزاء والاختزال والسطحية، وأن يتم التخلص من الذرائعية مع العناية بالمنهجية المعتبرة وتحكيمها. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

د. خالد صلاح حنفي*

التعايش خيار أم ضرورة؟

يتضمن مفهوم العيش المشترك قدرة الإنسان على تغيير طبيعته الاجتماعية، وتحويلها إلى طبيعة اجتماعية عقلانية واعية وإنسانية، تتبنى قاعدة التآنس والمحبة والتآلف والانسجام بين البشر، وتحترم حق الاختلاف والاحترام، وهو أروع شكل للكينونة والوجود مع الآخر.

وقد أوضح أفلاطون والفارابي وابن خلدون، أن التآنس يبدأ من المحيط الشخصي الضيق مع العائلة والأصدقاء، ليشمل الجماعات المختلفة في المجتمع الواحد، وصولاً إلى العيش المشترك على كوكب واحد بين أقوام وشعوب وثقافات مختلفة. فلا توجد حياة عامة أو إمكانية لحياة كونية دون رابط إنسي ضمن وحدة اللغة، أو الكلام الذي تتقاسمه الممارسات اليومية والعادات والتقاليد والأمنيات والحقوق والواجبات التي تهم كل فرد. فليس لأمة أن تحقق وحدتها وهويتها، إلا باتفاقها من خلال عملية تحاورية كبرى، تؤسس فيها عوامل الارتباط وأسباب إنجاحها، وتحولها إلى عيش مشترك في ظل الكرامة والحرية في إطار التقارب والتجمعات المترابطة، والهياكل المهنية والمؤسسات الثقافية

إن التعايش والتسامح الحضاري في الآونة الأخيرة يمران بأزمة أخلاقية طاحنة، لذا فإن الاعتراف بأهمية التعايش معًا وتأثيره العميق على حضارة الإنسان، هو أول الطرق للبحث عن حلول عقلانية.

والفنية على الصعيد الوطني وعلى الصعيد الإنساني.

وظهور مفهوم "العيش المشترك" في العصر الحديث، يرجع إلى تحرر أوروبا -بنهاية العصور الوسطى- من سلطة الكنيسة المسيحية التي هيمنت على كل مناحي الحياة وأجهضت أشكال التعددية والحرية، وانفتاحها على حضارات وثقافات جديدة، مما مهد الطريق لبناء مجتمع أوروبي جديد يقوم على التعددية والتنوع الفكري والسياسي، وإلى تبني مفاهيم الحوار الحر والاختلاف والتعايش، والتخلي عن أساليب القمع والعنف المختلفة التي لم تؤد تاريخيًا إلا إلى الدمار. ومع استقرار الأنظمة في أوروبا، والتطبيق التدريجي لقيم الحرية والتعددية، تحولت قيم الحوار والتعايش والاختلاف، إلى ثقافة وممارسات بديهية في واقع الحياة الأوروبية اليومية تجاوزها الفكر إلى آفاق فكرية أرحب.

الجدل حول التعايش المشترك

لقد عاد الجدل حول قضية التعايش المشترك مرة أخرى في الآونة الأخيرة بسبب عدة عوامل:

١- انهيار المعسكر الاشتراكي وسقوط أفكار أدلجة الدولة، ونظم التعليم التابعة لها، وتكريس الفكر الأيديولوجي الماركسي في المجتمع، وعودة المجتمعات الشرقية إلى دياناتها ومعتقداتها وطرق حياتها التقليدية، ونشوب صراعات عرقية ودينية، وحروب دموية نتيجة انغلاق تلك المجتمعات وغياب قيم وثقافة الحرية والحوار لعقود طويلة، والعودة إلى الأديان كوسائل لترابط الأفراد وتكتلهم ضمن أطر اجتماعية معينة سواء في الشرق أو في الغرب، وظهور الطوائف المختلفة والطرح الطائفي، والتحول من التعايش والتسامح إلى التطرف والإقصاء.

٢- تحول كثير من الأنظمة الديكتاتورية إلى أنظمة ديمقراطية تقوم على التعددية السياسية والتداول الديمقراطي للسلطة واحترام حقوق الإنسان، وانتشار النظام الغربي لإدارة الدولة ونظام الحكم، مما استدعى ممارسات وقيم وثقافة جديدة في دول أوروبا الشرقية وأمريكا الجنوبية، ومعظم الدول الأفريقية ودول آسيا.

٣- الثورة التكنولوجية وما أحدثته من تغيرات ثقافية تحمل -إضافة إلى مزاياها- الكثير من المخاطر؛ كتقليل فرص التعايش الحضاري والانسجام الإنساني، وإشاعة مساحة من عدم التسامح بين الثقافات المختلفة وبين الدول وبين الجماعات في الدولة الواحدة، وقد تستخدم لتلميع وتسويق الأفكار المتطرفة الدينية والمذهبية والعرقية والاقتصادية، وتشويه سمعة آخرين مختلفين في الاجتهاد السياسي أو الديني أو المذهبي.

٤- التغيرات الاقتصادية، وتقليص الحواجز بين الدول، من خلال الاتفاقيات العالمية كالجات، وتزايد حركة الهجرة والسفر والتنقل والحصول على الوظائف عالميًا، مما استدعى ضرورة تماشي المجتمعات مع الواقع الجديد، والتعايش مع القادمين الجدد.

٦- خلل الحوكمة في كثير من دول العالم، وتقلبها من حكومات عسكرية ديكتاتورية، أو حكومات مدنية ديكتاتورية، أو شبه ديموقراطيات هشة، وغياب الحوكمة الرشيدة (المشاركة والشفافية والحكم بالقانون) وزيادة الفساد، الأمر الذي نتج عنه إما حروب أهلية أو حروب بينية أو حركات إرهاب.

وقد أوضح "جاك دريدا" أن العولمة قد أفرزت نمطًا للعيش يقترب من بعض معطيات التوحش، وغلبة "التكنوقراطي العلمي" على مجرى الحياة، مما قد يدفع الأفراد إلى نوع من "الوحشة" والكآبة والوحدة التي قد تتحول إلى الهمجية والعنف.

أزمة التعايش والتسامح الحضاري

إن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة: كيف يمكن التقارب بين البلدان المتقدمة التي تمتلك الثقافة والطموحات ومصادر القوة وتهيمن عليها، والبلدن النامية والفقيرة التي تعاني الفقر والجهل والمرض؟ وهل يمكن تحقيق التقارب والعيش المشترك؟

إن العالم يمر بمرحلة صعبة من التحول الكبير الذي

hiragate.com

لا بوصلة له حتى الآن، ولا فكر أو رجال يقودونه. فنحن أمام مشهد يشابه -إلى حَدٍّ ما- مشهدَ العالم قبل الحرب العالمية الثانية من تضارب عميق في المصالح وغياب التوافق، والتغيرات الهيكلية المستمرة على النطاق العالمي، ونشوب صراعات يغذيها التنافس بين القوى الكبرى التي تفقد قدرتها على الحسم أو على الانتصار، فتحارب بعضها من خلال وكلاء أو من خلال أدوات ضغط، مثل الحصار والمقاطعة، بل والعمل مع شبكات الجماعات السرية.

إن التعايُش والتسامح الحضاري في الآونة الأخيرة يمران بأزمة أخلاقية طاحنة، ومن هنا فإن الاعتراف أولاً بأهمية التعايش معًا وتأثيره العميق على حضارة الإنسان، هو أول الطرق للبحث عن حلول عقلانية لها، وعدم الانجرار وراء التعميم أو تعظيم الخوف من الآخر، وتأسيس الدولة الوطنية المدنية العادلة والمؤسسة، على التعددية على أساس قاعدة المواطنة المتساوية.

ويؤكد "لودغير كونهاردت" على أن "العيش معًا" هو المصير المحتوم للشعوب على اختلاف دياناتها، وهي أمر لا بد منه لتحقيق إنسانية كونية خلال القرن الواحد والعشرين. وهذا الأمر يؤدي إلى تعميق فكرة "العيش معًا" بين جميع الناس. فالاعتراف بالتنوع مع القبول بالقيم الكونية، الذي يستمد جذوره من الحب بين الناس وحب الله، نتيجة حتمية لتلك المعطيات.

كونية تحترم الاختلاف

إننا كبشر بحاجة إلى كونية جديدة تحترم الاختلاف والتنوع، تسهم الفلسفة فيها في البناء الأنطولوجي لهوية متعددة ولغيرية متسامحة تتبنى احترام الاختلافات الثقافية، وتؤسس لحوار حضاري يتبنى القيم المقاومة للهيمنة، وعقلانية تضع حدًّا للدوغماتية والتعصب، وكُلّيّانيّة الأفكار، وتهدف لتحقيق السلام بين البشر، وبلورة إطار تواصلي بين الثقافات والشبكات القيمية الإنسانية وفق مقتضيات التسامح، والانتماء المشترك والتكامل العضوي بين أبناء البشرية، واستيعاب تنوعهم القومي والحضاري والديني.

وأوضح "بول ريكور" قدرة فلسفة الإرادة على الإسهام في رؤيتها لفهم مشترك، والاعتراف المتبادل بين هويتنا الإنسانية وبين هوياتنا الثقافية اعترافًا فعليًّا من أجل التكامل.. فالثقافة تمنح الذات الإنسانية اللغة والأفكار والأخلاق الخاصة بمجموعة ما، في حين أن الحضارة تشرك الذات الإنسانية في عمليات تقنية واقتصادية وسياسية.

وأوضح "ماتياس كوفمان" أن متطلبات العيش المشترك تشمل تقبل الاختلاف في اللغات والثقافات والوظائف ..إلخ، والتسامح والقضاء على التفاوت الفعلي اللامرغوب فيه، وتوفير الحقوق والعدالة والديمقراطية الاجتماعية، من خلال دولة تخضع للحقوق الأساسية، ووجود مواطنين أحرار لا يخضعون لأي قمع سياسي أو اقتصادي، ولديهم الاستعداد للتعاون والتعاضد، ووجود رؤية عقلانية لا اختزالية للعالم، تضع حدًّا للدوغماتية الفكرية، وتبحث عن السلم الأبدي، وتحترم اختلاف الثقافات والتعابير الإنسانية.

لقد حان الوقت لانتهاج سياسات رشيدة إزاء التعددية الثقافية مهما يكن نوع ومكونات هذه التعددية، فالأصل في المجتمعات هو التنوع والتعدد والتعايش والحوار، في إطار من الوحدة ولكن الطوعية وليس القسرية. فالتعايش يحافظ على كينونة ووحدة المجتمع ويسهم في التفاعل البنّاء فيما بين المكونات الاجتماعية، ويجنّب المجتمعات الكثير من الصراعات الخفية أو المعلنة، والتعايش بهذا المعنى، يمثل الاعتراف المتبادل، والاحترام المتبادل، والمسؤولية المتبادلة بين مختلف المكونات والتعدديات، والانتقال بالمجتمعات من حال المواجهة إلى حال أرقى من حيث النوع والحضارة والسلام.

ولا مفر اليوم من أن نعيش معًا ونحن نتقاسم نفس الأرض والماء والهواء بل وحتى اللغة والثقافة. وفي عالم يتوحد يومًا بعد يوم ويُحَدِّث أخباره كل صباح ومساء، سيزداد اختلافنا وتنوعنا، وستقل قواسمنا المشتركة التي تعودنا عليها، وتصبح هويتنا الجماعية في حاجة إلى إعادة البناء. لذلك صار لزامًا علينا أن ندرك أهمية التربية على المواطنة في حياتنا، وأن نوليها أهمية قصوى، ونجعل منها قضية وطنية بامتياز. ■

(*) كلية التربية، جامعة الإسكندرية / مصر.

hiragate.com

السنوسي محمد السنوسي*

من شروط الإقلاع الحضاري

قبل أن تستقر سفينتنا على شاطئ الخمول والجمود، وتطيل عنده المكوث والانتظار حتى كاد ركابها ينسون أنهم قد عانقوا أمواج البحر المتلاطمة زمانًا طويلاً، وكانت لهم بين جنباته صولات وجولات زاخرات بالبحث والتنقيب عن كل ما هو نفيس؛ مما يُخفيه البحر بين طياته، ويحتاج لسبَّاح ماهر يستخرج منه الكنوز واللآلئ.. قبل هذه الحال التي انتهينا إليها، عشنا زمانًا غير قليل نُبحِر ونسبح، ونغوص في قلب الأمواج والأعماق.

كانت بحارُ المعارفِ شديدةُ العمق مجالَ حركتنا، وكانت الثقة بالنفس وحسن إدارة الذات مَرْكَبَنا، وكان الإصرار على إحراز النجاحات رغم المخاطر والأهوال والمشاقِّ دافِعَنا، وكان استخراج الأصداف ثمينة القيمة هِوايَتَنا.

ما أبعدنا عن ذلك الماضي التليد، حتى لكأنه كان شيئًا من خيال، أو طائفًا في منام، وليس حقيقة واقعة في دنيا الناس، وعليها من الشهود والإثباتات ما لا يمكن تكذيبه، وما اعترف به الخصوم قبل الأصدقاء.

وحتى تعاود سفينتنا إقلاعها الحضاري، وتستأنف إبحارها وسطَ عاتِي الأمواج بثقةٍ ومهارة ونجاح؛ فثمة شروط كثيرة علينا أن نشرع فورًا في التحقق بها، والعمل بمقتضاها.

من بين هذه الشروط الكثيرة نختار ثلاثة يتصل أولها بالمجال الفكري في الهوية والانتماء، وثانيها بالشأن الاجتماعي وتماسكه، وثالثها يشير إلى ما ينبغي أن يسود علاقتنا بالآخر والتفاعل الحضاري معه.

١- الهوية والانتماء

لكل حضارة من الحضارات أو أمة من الأمم، هويتها التي تصنع لها بصمتها الذاتية المميَّزة والمميِّزة في عالمنا المتعدد الثقافات والمشارب.. ولا يمكن لأي أمة أن تبدأ أو تستأنف مسيرتها وهي مشتتة الهوية والانتماء الثقافي، فالهوية هي ما تصنع الشخصية الفكرية التي بدورها ترسم ملامح النهوض المادي.

ولذا، فالأمم والحضارات لا تتمايز بما تمتلك من إمكانات مادية -وإنْ كان لهذه الإمكانات دور في ذلك- وإنما تتمايز بهويتها وثقافتها وعمرانها النفسي والعقلي.

وقد تعرضت أمتنا منذ ما يزيد على قرنين، لهجمة ثقافية؛ تزامنت مع الهجوم المادي على أرضها بالغزو والاحتلال، وأفقدتها كثيرًا من عوامل هويتها المتفردة، فصارت هذه الهوية، الجامعة، الواحدة، ذات الحضور العميق في وجدان وعقول الأمة على مستوى النخب والطبقات المختلفة.. صارت مزاحمَة بهويات أخرى مبتوتة الصلة بثقافة الأمة وتاريخها ومنهجها القائم على الوحي كتابًا وسنة.

ثم جرت في نهر الهوية مياه كثيرة، حتى صار شبابنا فريسة لكثير من الأفكار التي تأخذه بعيدًا عن هويته، وأصبحنا نجد من يدعو لتقليد الآخرين تقليدًا أعمى؛ تقليدًا لا ينصبّ على ما يمكن اقتباسه والاستفادة منه، مما هو مشترك إنساني عام، بل يتجه لما يثير الغرائز، ويبعث على الشكوك، ويزعزع المناعة الفكرية تحت دعاوى شتى تركز على واقع المسلمين المتردي، ولا تحاول أن تلتمس النجاة في النبع الصافي المتجدد في القرآن الكريم والسنة النبوية.. ذلك النبع الذي لا يبلى، ولا يفقد قدرته على التحدي مهما كان واقع أتباعه سوءًا وترديًا.

إذا كان الإسلام قد قرر أن من حكمة الله في خلق الناس مختلفين أن يتعارفوا، فإن أحد أوجه التعارف هو التعرف على ما لدى الآخرين من علم وحكمة، ووزنه بالميزان الحضاري الذاتي.

خلط البعض بين قدرة المنهج على تلبية حاجة الأمة من النهوض والتطور ومجاراة العصر، وبين واقع بئيس هو محصلة قرون عدة وعوامل كثيرة، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون انعكاسًا أمينًا لمنهج الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده جميعًا حتى تقوم الساعة.

إزاء هذا الوضع المكبِّل لأي دعوة صادقة للنهوض والتقدم، فإن تعزيز هويتنا الإسلامية في مختلف مجالات الحياة، وإعادة الاصطفاف والإجماع عليها، يبدو أمرًا ضروريًّا في استئناف الإقلاع الحضاري.

٢- التماسك الاجتماعي

لعلنا نلاحظ من مسيرة الأمم ذات الحضور المميز في تجارب النهوض، بل من مسيرة أمتنا في تجربة ميلادها الأول، أن تماسك النسيج الاجتماعي شرط أساسي للنهوض. فالحضارة لا تقوم على الأفراد، إنما تقوم على المجتمع، وكلما كان المجتمع متماسكًا مترابطًا كانت فرصته أكبر في إثبات الوجود والفاعلية الحضاريين.

ولننظر إلى ما فعله النبي ﷺ حين قدم المدينة المنورة مهاجرًا؛ لقد قام ﷺ بخطوات أساسية هي بناء المسجد، المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، إقامة سوق للمسلمين، إضافة إلى "وثيقة المدينة" التي حددت أسس التعايش بين المسلمين وغيرهم.

وهذه الخطوات تشترك في الدلالة على أهمية التماسك الاجتماعي، ودوره الحيوي في صناعة الحضارة وإحراز النهوض.

فالمسجد مكان للعبادة والأخوة، والمؤاخاة أسمى صور التلاحم المجتمعي التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً. والسوق يصنع للمجتمع الناشئ استقلاله المادي، ويحقق أمنه الاقتصادي الذي بدوره ينعكس على أمنه الاجتماعي. أما "وثيقة المدينة" فهي إبداع إسلامي يمثل شاهد صدق على قدرة النموذج الإسلامي الحضاري

hiragate.com

على استيعاب مكونات عدة داخل إطاره وضمن حدوده بلا إقصاء أو تهميش أو ازدراء.. على أن المجتمع مهما تعددت روافده الدينية والعرقية والاجتماعية، ينبغي أن يكون له إطار جامع ووحدة متماسكة.

فكانت المؤاخاة أساسًا لإخاء إسلامي عالمي فريد من نوعه، ومقدمة لنهضة أمة ذات دعوة ورسالة، تنطلق لصياغة عالم جديد قائم على عقائد صحيحة وأهداف منقذة للعالم من الشقاء والتناحر.. وكان هذا الإخاء المحدود بين المهاجرين والأنصار، طليعةً وشريطة لاستئناف حياة جديدة للعالم والإنسانية، لذلك خاطب الله هذه الحفنة البشرية في مدينة صغيرة بقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(الأنفال:٧٣).

ولا شك أن تدعيم التماسك الاجتماعي يستدعي مراجعةَ خطط العدالة الاجتماعية، وضمانَ الحقوق الأساسية لجميع أبناء المجتمع دون تمييز، بجانب العمل على نزع فتيل التباغض والتشاحن، والانتباه جيدًا لأي خروقات اجتماعية قبل أن تستفحل.

كما يستدعي ضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بما يعيد للقيم الإسلامية الأساسية -الشورى والعدل والحرية- فاعليتها في المجال السياسي الذي ينعكس بالضرورة على المجال الاجتماعي واستقراره وتماسكه.

وهنا نلاحظ أن "الشورى" ليست قيمة مطلوبة في المجال السياسي فحسب، بل هي قيمة اجتماعية بالأساس يتم غرسها في المرء منذ الصغر، وهي منهج يجب أن يترسخ داخل الأسرة الصغيرة بين الزوج والزوجة والأولاد، وداخل الأسرة الكبيرة بين أفراد المجتمع بصفة عامة. وقد وصف أبو هريرة النبي ﷺ قائلاً: ما رأيتُ أحدًا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ" (رواه أحمد).

٣- التفاعل الحضاري الواعي

لسنا نعيش وحدنا في العالم، ولا أحد يبدأ تجربته الحضارية من الصفر.. هاتان حقيقتان مقررتان في الواقع، ويشهد لهما التاريخ القريب والبعيد، لنا ولغيرنا. فلا يمكن أن يدّعي مجتمع ما قدرته على الانعزال التام عن الآخرين، وإذا حدث شيء من هذا القبيل، فإن آثاره السلبية تتراكم حتى تُحدث تشوهات في طريقة التفكير، وفي القدرة على مواكبة المستجدات، وإحراز رقم مهم في معادلات السباق الحضاري.

وإذا كان الإسلام قد قرر أن من حكمة الله في خلق الناس مختلفين -شعوبًا وقبائل- أن يتعارفوا، فإن أحد أوجه التعارف هو التعرف على ما لدى الآخرين من علم وحكمة، ووزنه بالميزان الحضاري الذاتي؛ فلكل أمة خصائصها الذاتية دون نفي وجود مشترك إنساني عام، يمكن فيه تبادل الخبرات والمنافع.

وهنا نشير إلى أن المسلمين في بداية نهضتهم الأولى أفادوا من تراث الحضارات السابقة، كما أن الحضارة الغربية في نهضتها المعاصرة أفادت من الحضارة الإسلامية.. وهكذا تتابعت الحضارات في حلقات يفيد بعضها من بعض، وينبني اللاحق منها على السابق.

فقد انفتح المسلمون على الحضارة الهندية وأخذوا منها علم الحساب، كما انفتحوا على الحضارتين اليونانية والرومانية وأخذوا منهما العلوم الطبيعية التي صحَّحوا أخطاءها وأضافوا إليها المنهج التجريبي، كما نقلوا أيضًا عن الحضارة الفارسية طريقتها في الإدارة والدواوين.

في مقابل ذلك، أفادت الحضارة الغربية -إبان نهضتها- مما أحرزه المسلمون من تقدم، ومما أرسوه من مناهج لا سيما فيما يتصل بالعلوم التطبيقية، حتى تعرَّف الغرب على تراثه الإغريقي وعلى فلسفة أرسطو من خلال جهود العلماء والمفكرين المسلمين؛ الذين استوعبوا ذلك جيدًا وأضافوا إليه، ولم يكونوا مجرد نقلة فحسب كما يزعم البعض ممن يحاولون التنكر لفضل الحضارة الإسلامية.

هذه بعض أهم الشروط التي أتصور أن مراعاتها ضرورية ونحن نبحث عن كيفية استئناف إقلاعنا الحضاري من جديد، حتى نكون أكثر فاعلية في واقعنا، وأكثر تعبيرًا عن رسالتنا التي هي رسالة ممتدة لا تقف عند زمان أو مكان، ورسالة للناس أجمعين لا تنحاز لجنس دون آخر، ولا لأمةٍ بعينها من دون الأمم. ■

(*) كاتب وباحث، وسكرتير تحرير مجلة التبيان / مصر.

hiragate.com

توماس ميشال*

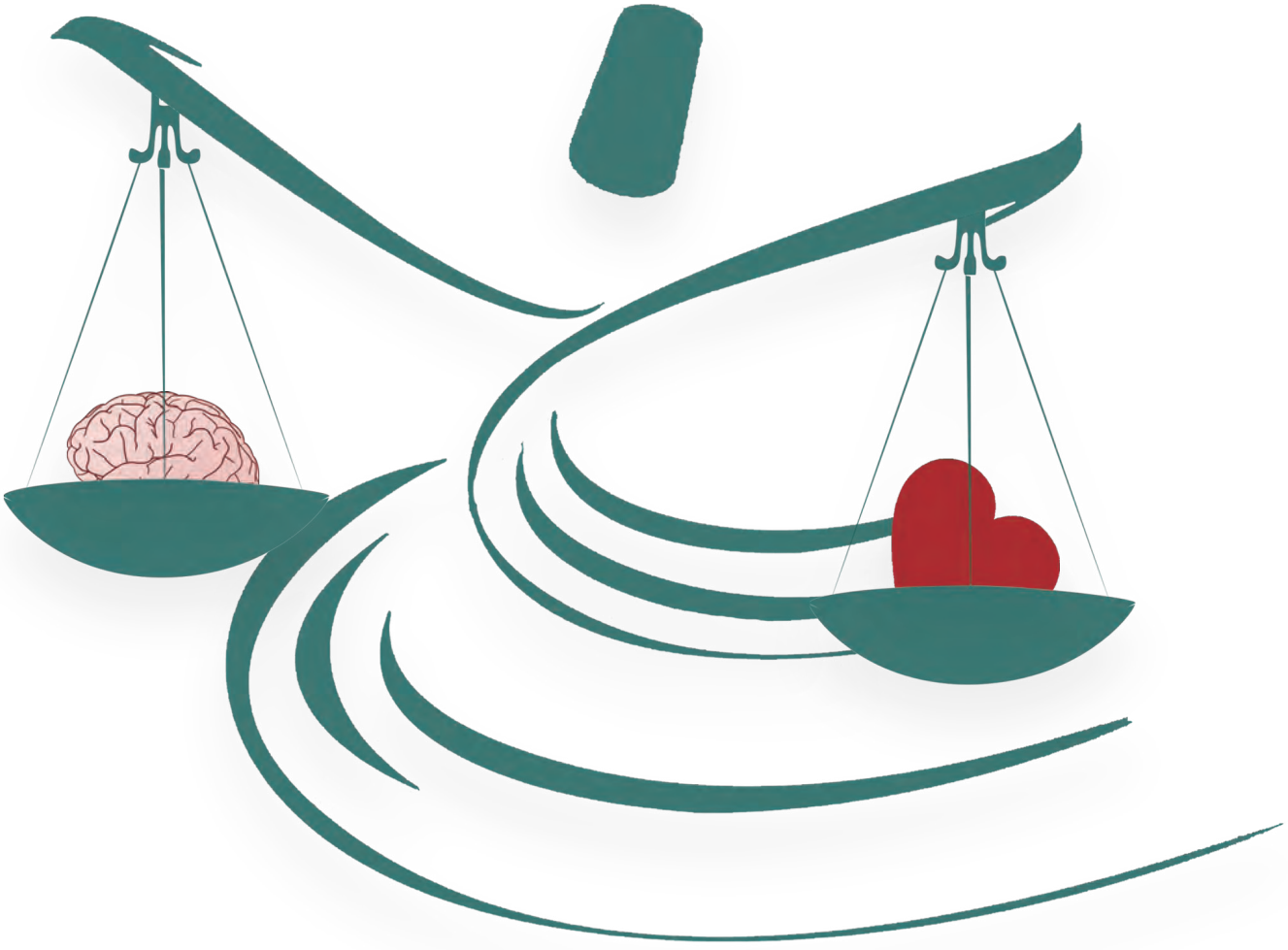

فتح الله كولن والتصوف
أية علاقة؟

إذا قمنا بدراسة كتابات وأعمال فتح الله كولن، فسيكون أول سؤال يتبادر إلى الذهن "هل خُوجَه أفندي (السيد الأستاذ) كما يناديه تلاميذه، صوفي أوْ لا؟".

ففي أوقات مختلفة من حياته اضطر كولن أن يدافع عن حركته، وأن يفند اتهامات بأنه ابتدع طريقة صوفية جديدة وأنه هو "شيخها". لكن الاتهام بتأسيس "طريقة صوفية" في تركيا اليوم يحمل في طياته تهمتين مزدوجتين، كما أن له تداعياتٍ قانونيةً وسياسيةً؛ لأن الطرق الصوفية لا تزال محظورة قانونيًّا في تركيا، وإن تأسيس طريقة جديدة يعتبر نشاطًا غير قانوني. وينظر العلمانيون إلى التصوف على أنه جزء

من ماضي ما قبل الحداثة، وأنه من آثار العهد العثماني، وأحد عوائق التقدم والتنمية والازدهار والرفاهية.

وفي المقابل هناك تيار ديني يرى أن التصوف هو السبب في ابتعاد الأمة الإسلامية عن الوظيفة التي كلفها الله بها وهي بناء مجتمع يتفق مع قواعد القرآن والسنة، كما يتهمون الصوفية أيضًا بأنهم يشجعون على ظهور البدع التي لا أصل لها في الدين، وإظهار تدين سلبي، والتركيز على الجانب الروحي والذاتي فقط في الدين.

وردًّا على هذا الاتهام يؤكد كولن أنه لم يؤسس طريقة صوفية، وأنه لم ينتم شخصيًّا لأي طريقة صوفية قط، فهو يقول: "إن الطرق مؤسسات ظهرت باسم تمثيل الصوفية بعد ستة قرون من عهد نبينا ﷺ، ولها نُظُمها وقواعدها الخاصة بها. إنني لم أنضم قط لأية طريقة صوفية ولم تربطني أيضًا أية علاقة بأي منها".

وبالنسبة لمسألة تلقيبه بـ"خُوجَه" -وهو اللقب الذي يطلقه الصوفيون عادة على معلمهم في العهد العثماني- أجاب بأن هذا اللقب لا يحمل أية دلالات إيحائية أو تتعلق بتسلسل هرمي، وإنما هو ببساطة "نوع من التوقير".

صوفي بلا انتماء

ولكن هل عدم انتماء كولن لأي من الطرق الصوفية ينفي عنه التصوف؟ في الدراسة التفصيلية التي قام بها "زكي ساري توبراك" عن نزعات كولن الصوفية، وَصَفه بـ"الصوفي على أسلوبه الخاص"، كما يؤكد ساري توبراك أن هناك كثيرًا من الصوفيين لا ينتمون لطريقة صوفية معينة. فخلال القرون الستة الأولى من الإسلام، لم يكن هناك أية طرق صوفية بالرغم من وجود عديد من الصوفيين البارزين، وحتى بعد ظهور الطرق الصوفية في الأمة الإسلامية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، كان هناك عديد من الصوفيين المعروفين، ولكنهم لم ينتموا إلى الطرق الصوفية. غير أن ساري توبراك يعترف بالموقف الإشكالي للصوفي المعاصر الذي لا ينتمي لطريقة معينة وليس له مرشد روحي. يقول ساري توبراك:

"لم يكن للصوفيين الأوائل طرق ولا تنظيمات صوفية، فـ"رابعة العدوية" و"الجُنيد البغدادي" و"الحارث المحاسبي" و"بِشر الحافي" و"الغزالي" و"فريد الدين العطار" وحتى "الرومي"، لم ينتموا إلى طريقة معينة رغم أنهم كانوا من الصوفية. ووفقًا للأساسيات المحورية للمؤسسة الصوفية، فإن مسألة تصوفهم تصبح جدلية؛ لأن هؤلاء الصوفيين الأوائل، لم يكن لهم أي مرشد روحي".

ويعد وجود مرشد أو معلم روحي مسألةً جوهرية، فالغالبية العظمى من الصوفية لا تشجع بل وتمنع اتباع شخص ما للطريق الصوفي دون أن يكون له معلم أو شيخ، غير أنه لم يزل هناك أقلية من الصوفيين ترى دائمًا أن هذا المرشد الروحي لا يجب أن يكون شخصًا على قيد الحياة، فبعض الصوفيين مثلاً يدّعون أن مرشدهم هو "الخضر" عليه السلام.

أما كولن فيرى أن ما يرشده في رُقِيّه الروحي هو القرآن والسنة، ويعتقد أن القرآن ليس فقط أفضل مرشد بل هو مصدرُ وينبوعُ كل الأفكار والممارسات الصوفية الصحيحة، وحيث إن مصدر التصوف هو القرآن والسنة، والذين طبقوا الآيات القرآنية من خلال "مجاهدتهم"؛ فلا ينبغي اعتبار التصوف مجرد بديل يتبعه بعض المسلمين الخارجين عن الشريعة أو المناقضين لها، ولكن ينبغي النظر إليه على أنه أحد علوم الإسلام الأساسية.

فالتصوف لا يتعارض مع أي من الأساليب الإسلامية المستندة إلى الكتاب والسنة، بل إنه يبعد كل البعد عن التعارض، حيث إنه يستقي من نفس مصادر العلوم الدينية الأخرى (القرآن والسنة)، بالإضافة إلى الاستنتاجات التي استنبطها العلماء الأجلاء من القرآن والسنة عن طريق "الاجتهاد".

ولما كان التصوف طريقًا للعبادة جُلّ اهتمامه الباطن، ويتناول الجانب الروحي للأحكام الشرعية ومدى تأثيرها على القلب، والأعماق التي تشف في الوجدان، فهو بالنسبة للمسالك الأخرى أكثر غورًا ولدنّيةً وأوسع مدى وأصعب فهمًا، إلّا أنه من حيث الهدف والمنطلق، نابع من الكتاب والسنة لا ينافي أي طريق إسلامي آخر، بل هو كالعلوم الشرعية الأخرى، يؤكد روح العلم والمعرفة واليقين والإخلاص والإحسان وما شابهها من الحقائق، مستندًا إلى الكتاب والسنة والاجتهادات الخالصة للسلف الصالح.

فبالنسبة لكولن، التصوف والشريعة وجهان لحقيقة

hiragate.com

واحدة، أو بمعنى آخر هما طريقتان للتعبير عن نفس الحقيقة، فالاختلاف في التعبير بطريقتين ينبع من الاختلاف في المشارب وليس لاختلافات في محتوى الرسالة. يقول كولن في هذا الصدد:

"ظن قسم من المسلمين في بعض العهود، أن الشريعة شيءٌ وروحُ الشريعة التي تشكِّلها المراقبة والرياضة والمجاهدة ..إلخ، شيءٌ آخر -وهما في الأصل وجهان لحقيقة واحدة- فاستمسك بعضُهم بواحدة منهما والبعضُ الآخر بالأخرى، فأخذ كلٌّ منهما موقف العداء من الآخر، بتوهم أن إحداهما تشبُّثٌ بالظاهر والأخرى تشبُّث بالباطن. وفي الحقيقة أن ما أَوْجد -إلى حد ما- ظهور هذا الاختلاف هو أن الفقهاء وأهل الفتوى مثّلوا جانب الشريعة النظري، بينما مثّل الصوفيةُ جانبها الباطني. والحال أن هذا الاختلاف يمكن النظر إليه على أنه نتاج لميل طبيعي في الإنسان، وهو أن يعطي كلُّ شخص الأولويةَ للأسلوب الذي يتوافق أكثر معه ومع استعداده الشخصي".

ولم يزل هناك مِن الصوفيين المنحرفين عن الشريعة مَن ادعوا أن اتّباع الأحكام الفقهية (الظاهرية) للشريعة لا حاجة له بالنسبة لهؤلاء الذين يسلكون طريق "الباطن". ولكن من الواضح أن كولن، من الذين يؤكدون على ضرورة عدم التخلي عن الشريعة. فهو بمثابة امتداد لسلسلة صوفية تحتل الشريعةُ الإسلامية الصدارة في تصورهم، والتي تمثلت في تقاليد الطريقة القادرية والنقشبندية في القديم، وفي سعيد النورسي الذي يرى التصوف جانبًا مهمًّا من جوانب حياة المسلم المخلص الذي يبحث عن سبل، لينقل رسالة القرآن والسنة إلى الحياة بشكل كامل في العصر الحديث.

روافد مؤثرة

وترى الأستاذة الدكتورة "أليزابيث أوزدالجا" أن هناك ثلاث نقاط مرجعية إيجابية شكّلت فكر فتح الله كولن وهي: الإسلام السُّنّيّ، والتقاليد الصوفية للطريقة النقشبندية، والحركة النورية وهي تسمية تطلق على الذين تأثروا بكتابات سعيد النورسي.

أما النقشبنديون فهم يصرون دائمًا على الأداء

إن جهود كولن في مجال التعليم رد فعل طبيعي لعدم وجود بديل في برامج التعليم الراهنة. إن الافتقار إلى التكامل بين المعرفة العلمية والقيم الروحية هو ما دفع كولن لوضع تصور جديد في التعليم.

الحريص لقوانين الشريعة، إذن فلا تعارض لديهم بين التصوف والشريعة، لكن كولن يختلف عن الطريقة النقشبندية من حيث إن تابع هذه الطريقة يقدَّم له برنامج صريح خاص بالتطور الروحي، والذي ينفذه تحت إشراف شيخه.. في حين أن برنامج كولن يؤكد على الأعمال الصالحة التي لا حد لها، أو الخدمة المتواصلة في سبيل الإنسانية أكثر من تأكيده على التدريبات والرياضات الروحية.

ربما كان سعيد النورسي من أهم العوامل المؤثرة إيجابيًّا على تطور فكر كولن بوجه عام وفهمه للصوفية بوجه خاص. وكما فعل النورسي الذي نبع فكره أيضًا من داخل الطريقة النقشبندية لكنه اختار العمل والتعليم خارج حدود طريقة ثابتة، فإن كولن أيضًا يرى أن التصوف أقرب إلى أن يكون حكمةً تراكمية لعلماء الإسلام أكثر منه ضرورة مؤسسية لتحقيق قيم الإسلام داخل الفرد.

ويرى النورسي أن "هناك تحت عناوين التصوف والطريقة والولاية والسير والسلوك، حقيقة روحانية نورانية مقدسة، طافحة باللذة والنشوة، أعلن عنها كثير من علماء أرباب الكشف والأذواق، وتناولوها بالدرس والتمحيص والتعريف، فكتبوا آلاف المجلدات حولها فأخبروا الأمة وأخبرونا بها"، يقول النورسي:

"لا يمكن أن تدان "الطريقة" ولا أن يحكم عليها بسيئات مذاهبَ ومشارب أَطلقت على نفسها -ظلمًا- اسم "الطريقة"، وربما اتخذت لها صورةً خارج دائرة التقوى، بل خارج نطاق الاسلام. فلو صرفنا النظر عن النتائج السامية التي تُوصل إليها الطريقة سواء منها الدينية أو الأخروية أو الروحية، ونظرنا فقط إلى نتيجة واحدة منها ضمن نطاق العالم الإسلامي، نرى أن "الطرق الصوفية" هي في مقدمة الوسائل الإيمانية التي تُوسّع

hiragate.com

من دائرة الأخوة الإسلامية بين المسلمين، وتبسط لواء رابطتها المقدسة في أرجاء العالم الإسلامي".

معنى التصوف عند كولن

وينظر كولن إلى التصوف باعتباره "البُعد الداخلي والروحاني للشريعة"، ويرى أن بُعْدَي الإسلام لا يجب فصلهما أبدًا؛ فإن أداء المظاهر الخارجية دون الالتفات إلى قوتها التحولية الداخلية يؤدي إلى تطبيق جاف للشعائر، وكذلك التركيز على الضوابط الباطنية ورَفْض ما فُرض من شعائر وسلوك، يقلل من القدرة الروحية على اتّباع الأشياء المفضلة والميول الشخصية. ولذلك لن يستطيع المرء أن يسلم حياته كلها بتواضع لله، إلا من خلال تنشيط بُعْدَي الإسلام معًا.

"إن أساس التصوف هو الرعاية لآداب الشريعة ظاهرًا، والوقوف على تلك الآداب باطنًا، فالسالك الذي يُحسن استعمال هذين الجناحين يرى من الباطن ما في الظاهر من الأحكام، ويشعر ويعيش في الظاهر بالأحكام التي في الباطن. وبفضل هذه المشاهدة والشعور يسير دومًا بأدب نحو الهدف، ويجول قريبًا منه ويحوم حوله".

وكما أن التصوف هو "إحياء علوم الدين" على حد تعبير الغزالي، فالشريعة هي الرسوخ والتعمق في التعاليم والتقاليد الإسلامية. يقول كولن:

"إن لم يستطع السالك إعداد قلبه وفقًا لمتطلبات كل من رحلته الروحية وأوامر الشريعة -بمعنى أنه حين يحلق بمشاعره في أجواء لا نهائية إن كان لا يضبط فكره وفهمه في ضوء النبوة- فلا جرم أنه سيسقط، وسيرتبك ويختلط عليه الأمر في كلامه وأفعاله التي لا تتوافق مع روح الشريعة".

ويرى "ساري توبراك" أن المرء لا يسمى بـ"الصوفي" بانتسابه إلى طريقة، ويستشهد بـ"جلال الدين الرومي" إن المرء لا يكون صوفيًا بظاهره، ولكن بنقاء طويته وطيب سريرته. يقول ساري توبراك:

"إن كولن لم يسم نفسه صوفيًا قطّ؛ فالمرء ليس صوفيًا بالاسم ولكن بالروح والقلب، وكما يقول الرومي: كيف يكون المرء صوفيًا؟ إنه نقاء القلب وليس الرداء المرَقَّع أو الشهوات الجنسية المنحرفة لهؤلاء الدنيويين الذين يسرقون هذا اللقب، لكن الصوفي الحقيقي هو الذي يعطي الأولوية لتصفية الروح. وخلاصة القول إن كولن يدرك أن المرء يفني نفسه ويتلاشى في أشعة الحقيقة، من خلال إدراكه لعجزه وفقره وتفاهته".

وإذا اعتبرنا أن كولن صوفي في الروح على الأقل إن لم يكن بالاسم أيضًا، فماذا يعني التصوف في نظره؟ يقدم كولن تعريفه الخاص للصوفي فيقول: "التصوف هو التحرر من الصفات البشرية إلى حد ما، واكتساب الصفات الملائكية والأخلاق الإلهية، والعيش في فلك المعرفة والمحبة الإلهية والذوق الروحاني".

يبدو أن كولن يعطي أولويةً للإرادة مؤكِّدًا على أن التصوف يعني التغلب على الصفات البشرية، والوصول إلى حول الله وقوته ورحمته، واكتساب الفضائل والسلوكيات التي يرتضيها الله في عباده. ومن يستطع أن يعيش على هذا النحو، يَترقَّ في "المعرفة" أو الحكمة الروحية و"المحبة" و"العشق" لله وللآخرين، ويُنعم الله على المؤمن الذي يتبع هذه الطريق بالسعادة الروحية التي تشجعه وتعطيه الثقة. ويتوافق هذا الفهم مع الاتجاه العام للسلوك الصوفي عبر القرون، حيث يبذل الصوفي جهده لينال المقامات الروحية المختلفة، وعندها تنزاح الحواجز الواحد تلو الآخر بين العبد والرحمة الإلهية، وعندها ينبغي له أن ينتظر في ثقة لينال "الأحوال" الروحية للمعرفة والحب والبهجة.

دور التصوف عند كولن

ولكن لماذا اهتم كولن بالتصوف؟ وماذا يوجد فيه من جاذبية تستهويه؟ لقد قال في تصريح معبر له: إنه لاحظ أن المسلمين عبر القرون الذين كانوا أكثر تأملاً وطلبًا لتطبيق القيم الروحية التي يعلّمها الإسلام، والذين طوروا أنظمة تعليمية روحية للسيطرة على نزوات الأنانية، كانوا في الواقع صوفيين. إذن نستطيع القول بأن التصوف هو "جوهر" الإسلام، أو كما يقول كولن في موضع آخر هو "روح" الإسلام، حيث قال:

"إنه من الطبيعي أن يؤكد الإسلام على العالم الروحي، وهو يَعتبر تربية النفس مبدأً أساسيًا، ولذلك نجد مبادئ مثل: الزهد والتقوى والبر والإخلاص، تحتل مكانة

hiragate.com

كبيرة في هذا النوع من التربية، وفي التاريخ الإسلامي كان التصوف هو الفرع الأكثر تركيزًا على هذه المبادئ، ومعارضة هذا بمثابة معارضة جوهر الإسلام نفسه".

وبعبارة أخرى، تتجلى عبقرية التصوف -وفقًا لكولن- في قدرته على تجسيد رسالة القرآن والسنة في داخل الإنسان فيؤثر في سلوك المسلم ويُشَكِّله، ومن خلال التصوف يتعلم المسلم أن ينظر إلى ما هو أبعد من مجرد طاعة الأوامر والشرائع، وهو إدراك جوهر الإسلام الذي يصبح جزءًا لا يتجزأ من أسلوب حياة المؤمن. فالتصوف يوضح كيف يتسامى المسلم على أهدافه الشخصية، وكيف يتعامل مع الإحباط والتحديات، وكيف يتغلب على التثبيط والرتابة عن طريق الصبر والمثابرة، كما يمكِّن التصوفُ المسلمَ من اكتساب الصفات الفاضلة والانضباط الذاتي الذي يؤهله للعيش وفقًا لإرادة الله. ويقود التصوف إلى حالة "الشوق والسعادة"، فيتحول تطبيق الالتزامات الدينية من مجرد عبء مرهق ثقيل يحمله المرء مكرهًا، إلى قبول الحياة بحب وسعادة. إن ما يهم كولن بالدرجة الأولى، هو تلك القدرة الصوفية على تقديم برنامج عملي يمكّن المسلم من تبني الإيمان والتطبيق، وليس طقوس الانتشاء والتجارب الصوفية الخارقة للعادة التي يزعمها بعض المتصوفة أو التي تُنسب إليهم أحيانًا.

لم يَمنع احترامُ وتقدير كولن لشيوخ الصوفية وأساتذتها من نقد بعض تطبيقاتهم للحياة الصوفية أحيانًا، فكثيرًا ما تبددت نشاطات المتصوفين الأوائل في الأشكال المؤسسية التي تشكلت في الطرق الصوفية اللاحقة وبخاصة في العصر الحالي، حيث اعتزل عديد من المتصوفين الحياة الواقعية، وانخرطوا في تأملات باطنية غير مجدية. ويرى كولن أنهم إحدى المجموعات المسؤولة عن أزمة التعليم في تركيا الحديثة، بل إن جهود كولن في مجال التعليم يمكن النظر إليها على أنها رد فعل طبيعي لعدم وجود بديل في برامج التعليم المقدمة للطلاب الأتراك. إن الافتقار إلى التكامل بين المعرفة العلمية والقيم الروحية، هو ما دفع كولن ورفاقه لتصور نوع جديد في التعليم.

وقبل الابتداء في المشروع التعليمي الذي يتبناه كولن

إن فتح الله كولن لم يسمِّ نفسه صوفيًّا قط، فالمرء ليس صوفيًّا بالاسم ولكن بالروح والقلب.

ورفاقه، كان الطلاب في تركيا يُجبَرون على الدراسة إما في المدارس العلمانية الحكومية، أو في المدارس التقليدية، أو في التكايا، أو في الأكاديميات العسكرية، لكن كل هذه المؤسسات لم تتمكن من تحقيق التكامل الحقيقي بين التدريب العلمي والقيم الإنسانية والروحية؛ حيث ركزت المدارس الحديثة على تدريس المبادئ الأيديولوجية، وانفصلت مؤسسات التعليم الديني عن الحياة، وانخرطت مؤسسات التزكية (التكايا) في فلسفةِ ما وراء الطبيعة فقط، أما الجيش فقصر جهوده على القوة فقط، ولذلك كان تحقيق التكامل الحقيقي بين هذا كله مستحيلاً من الأساس.

ويؤكد كولن أن المدارس العلمانية لم تستطع أن تحرر نفسها من التقاليد والأحكام المسبقة للأيديولوجية العصرية، وذلك على الرغم من أن المدارس الدينية لم تُبد اهتمامًا كبيرًا أو قدرة على مواجهة تحديات التكنولوجيا والفكر العلمي، فهي تفتقر إلى المرونة والرؤية اللازمين للانفصال عن الماضي وإحداث التغيير، وتقديم هذا النوع من البنية التعليمية التي يحتاجها الطلاب اليوم. وبالرغم من أن التكايا الصوفية شغلت نفسها بتشجيع تنمية القيم الروحية، إلا أنها لم توفَّق في مواجهة تحديات المجتمع المعاصر، كما يقول كولن: يشتغلون بتسلية أنفسهم بقيمِ وكرامات الأولياء الذين عاشوا في القرون السابقة. ■

(*) أستاذ الدراسات الدينية، جامعة جورج تاون / الولايات المتحدة الأمريكية.

المراجع

(١) السلام والتسامح في فكر كولن، زكي ساري توبراك، دار النيل للطباعة والنشر، ٢٠١٤، الطبعة الأولى، القاهرة.

(٢) نشر المقال في نسخته الأصلية في مجلة العالم الإسلامي الأمريكية، العدد ٩٥ (يوليو ٢٠٠٥)، وقد نشرنا جزءًا من المقال الأصلي. وإن عنوان المقال وعناوينه الجانبية من تصرف المحرر. (المحرر)

أحمد مصطفى الغر*

النواة الأولى للمكتبة الإلكترونية

في عام ١٩٧١م، لم يكن في مخيلة "مايكل هارت"، الطالب بجامعة إلينوي، أن وضعه لإعلان الاستقلال الأمريكي على حاسوب، وجعله متاحًا للجميع على شبكة متصلة من عدة حواسيب، التي أصبحت فيما بعد تُعرَف باسم "شبكة الإنترنت"، سيكون النواة الأولى لثورة جديدة من المعرفة قائمة على الكتب الإلكترونية. فقد نجحت فكرة "هارت" عندما قام ستة أشخاص من مستخدمي الشبكة آنذاك، بتنزيل النسخة الرقمية

من إعلان الاستقلال الأمريكي من الشبكة. وقد كان ذلك إيذانًا بولادة مشروع أطلق عليه "هارت" لاحقًا اسم مشروع "غوتنبرغ"، وذلك تكريمًا للعالم الألماني "يوهان غوتنبرغ" الذي اخترع في القرن الخامس عشر أسلوبًا جديدًا للطباعة، وأحدث ثورة في عالم الطباعة والنشر. آمن "هارت" بضرورة توفير كل مصادر المعلومات والثقافة إلى الناس بأسلوب مقارب من الذي فعلته مطابع غوتنبرغ في منتصف الألفية الثانية، ولكن بشكل عصري يتناسب مع الأجيال الجديدة.

قام "هارت" بوضع ١٠٠ كتاب رقمي على تلك الشبكة، ووصل عدد الكتب إلى ٣١٣ كتابًا رقميًّا في عام ١٩٨٧م، وذلك رغبةً منه في توسيع فكرته ليصبح هدف مشروعه هو إنشاء مكتبة إلكترونية يمكن أن تغير العالم وتشجع على القراءة وحب المعرفة.

فأهم ما يميز مشروع مكتبة غوتنبرغ الإلكترونية أنه مجاني بشكل كامل، حيث لا يطلب من المستفيدين منه دفع أي رسوم، وهو أيضًا لا يسعى للحصول على أي منح أو حقوق رعاية من مؤسسات أو أفراد. فالمجانية المطلقة هي السمة المميزة لهذا المشروع، وذلك حتى لا يتحول إلى مكتبة عادية، لذا فهو قائم فقط على أساس الجهود التطوعية. وقد بلغ عدد المتطوعين في المشروع ٥٠ ألف شخص حتى الآن.

لا شك أن مشروع "غوتنبرغ" هو أول وأقدم مكتبة إلكترونية توفر المعلومات على الإنترنت، ويضم أكبر مجموعة فريدة من الكتب الإلكترونية، معظمها مجاني، حيث يقدم المشروع أسبوعيًّا عشرات الكتب الإلكترونية مجانًا عبر موقع إلكتروني يسمى موقع "آيبيبلو" تابع لجامعة نورث كارولينا. ومعظم الكتب التي يقدمها المشروع تتمتع بانتهاء أجل حظر نشرها طبقًا لقوانين حماية الملكية الفكرية بالولايات المتحدة، كما يقدمها بلغات متعددة. ففي إحصائية سابقة وُجد أن المشروع قد قدم ١٠٥٣ كتابًا بالفرنسية، و٤٥١ كتابًا بالألمانية، و٣٩٦ كتابًا بالفنلندية،

لا شك أن مشروع "غوتنبرغ" هو أول وأقدم مكتبة إلكترونية توفر المعلومات على الإنترنت، ويضم أكبر مجموعة فريدة من الكتب الإلكترونية معظمها مجانية.

حراء

و٢٧٩ كتابًا بالهولندية، و١٥٥ كتابًا بالإسبانية، و١١٤ كتابا بالإيطالية، و١١٣ كتابًا بالبرتغالية، و٥٤ كتابًا بلغة التغالوغ التي تتحدث بها جزر الفليبين، كما تضم المجموعة كتبًا ببعض اللغات القديمة مثل الكاتالان والفريزيان. وقد أعرب "هارت" عن توقعه بأن يحوي مشروع مكتبة غوتنبرغ الإلكترونية مليون كتاب بـ١٠٠ لغة. وقد عمل "هارت" لاحقًا على تطوير مشروعه، حيث أصبح يقدم كتبًا صوتية، وتسجيلات موسيقية، وأفلامًا سينمائية، ولوحات ورسومًا بيانية وتوضيحية، وغيرها من الأشكال الرقمية، للمعرفة والفنون، كما يعتقد بأن الكتب الإلكترونية خيار يسهم في الحفاظ على البيئة بوصفه بديلاً للكتب المطبوعة، كما أن معظم الناس قد لا تتحمل تكلفة الكتاب التقليدي حينما يتعلق الأمر باقتناء مكتبة كاملة، لذا فإن البديل هو اقتناؤها في صورة إلكترونية. فأي كتاب ينقل من الورق ليصبح

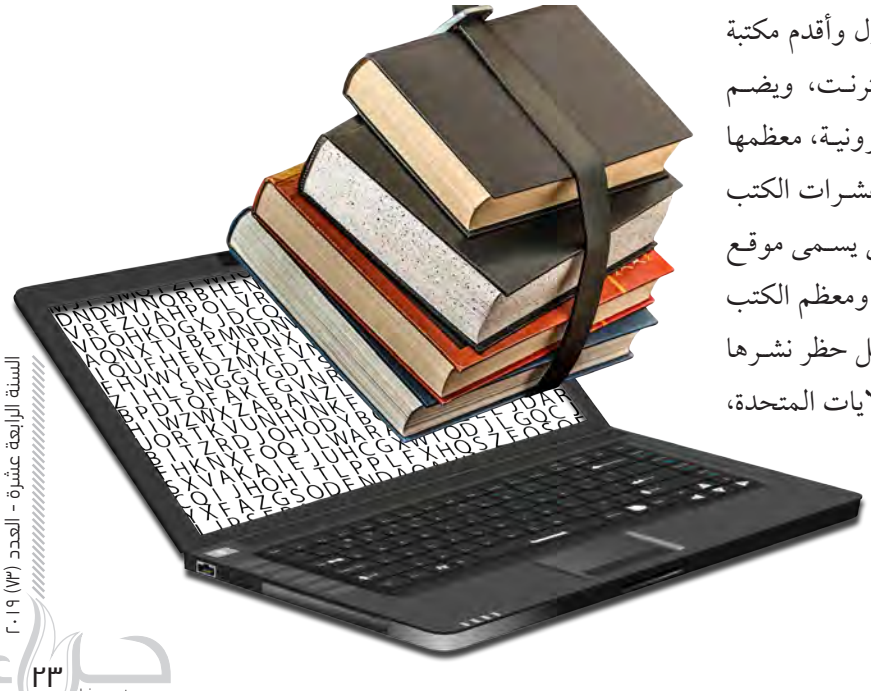

ملفًّا رقميًّا يمكن نشره ونسخه ملايين المرات بدون أي تكلفة تقريبًا، كما أن الكتاب الإلكتروني لا تنفذ طبعاته من السوق أبدًا، كما يسهُل الإضافة والتعديل والحذف لمحتوى الكتاب، وهو ما يسهل من إصدار أكثر من طبعة للكتاب في فترات متقاربة لسهولة التعديل والتنقيح.

إذن، هل انتهى عالم الورق؟ وهل سيختفي الكتاب الورقي التقليدي في الأيام اللاحقة؟ إن مسألة اندثار الورق باتت مسألة وقت، فمبيعات الكتب الإلكترونية، في تصاعد ينذر باختفاء الكتب المطبوعة. صحيح أن الكتاب صمد ولم يختف منذ أكثر من ٥٠٠ عام، كما تتكون بين القراء والكتاب المطبوع علاقة عاطفية محسوسة مع الصفحات على عكس الكتاب الإلكتروني الذي يكون أكثر برودة، لكن طبيعة القراء تغيرت كثيرًا، فمنذ ١٠ أعوام فقط لم يكن أكثر المتفائلين يمكنه تصور عدد مستخدمي وسائل ومنتجات التكنولوجيا الحديثة كما هو الأمر الآن.. فالكتاب الإلكتروني أكثر مرونة في التنقل وبالتالي يوفر الوقت، إلى جانب إمكانيات متعددة مثل ضبط الخط، والوصول إلى روابط إلكترونية خارجية مختلفة من خلاله بسهولة، حتى إن الحديث عن صعوبة القراءة من شاشات الأجهزة الإلكترونية، وكونها غير مريحة للعين مثل الكتاب الورقي، قد أكدت بعض الدراسات الحديثة أن الأجيال الجديدة لا توجد لديها مشكلة في التعاطي والقراءة من الشاشات، خاصةً مع تطور أنواع الشاشات وتقنياتها. كما أنه في الغالب يكون الكتاب الإلكتروني أرخص من نظيره الورقي، فبضغطة ذر في الشبكة العنكبوتية وبكل بساطة ويسر، يمكننا الوصول إلى ملايين الكتب والمراجع؛ كتب تقفز فوق الحواجز وتتخطى كل الحدود، ولا توقفها عراقيل المنع في الجمارك.

فاليوم لم يعد الكتاب ينتظر الإذن بالدخول لبلدٍ ما، لقد أصبح متاحًا على الشبكة للجميع. والدلائل كثيرة على أننا نسير نحو عالم رقمي بحت؛ منها أن سلسلة محلات إيكيا العالمية، عملاق صناعة الأثاث المنزلي والمكاتب، قالت قبل أشهر قليلة إنها بدأت تحور رفوف المكتبات

التي تنتجها، لتتلاءم مع متطلبات التقنية التخزينية الحديثة، موضحة إنها بدأت تصنع مكتبات تناسب الوضع الجديد، الذي يتطلب رفوفًا تضم أسطوانات مدمجة، وأدوات تخزين إلكترونية، وما شابه ذلك.

مع استمرار الحداثة، فقد أصبح هناك كتّاب رقميون ينشرون كل نتاجهم الأدبي عبر الوسائط الحديثة، وقد نالوا شهرة واسعة جعلتهم في مراتب تصنيف متقدمة، منهم -على سبيل المثال- الروائية الأمريكية "أماندا هوكينج" التي ألّفت أكثر من ١٧ عملاً روائيًّا، و٥٠ قصة قصيرة، وكانت دور النشر ترفض نشر أعمالها وتتجاهلها، لكنها لم تيأس وأتاها الحظ من رحم الأزمة؛ ففي أبريل من العام ٢٠١٠م علمت بأن معرض لـ"جيم هينسون" لفن تحريك العرائس سيقام في شيكاغو بنهاية العام، ولأنها كانت عاشقة لهذا الفن وكانت ترغب في حضور المعرض، فكان لا بد من توفير ٣٠٠ دولارًا كي تسافر إليه.. فاتخذت قرارًا كان من شأنه أن يغيّر حياتها بالكامل فيما بعد، حيث قررت نشر كتبها على منصات النشر الإلكتروني، مثل أمازون كندل، وسماش ووردز، ورغم أنها لم تكن تعقد أملاً كبيرًا على الأمر، لكنها سرعان ما باعت تسع نسخ من أول كتاب نشرته رقميًّا

في يوم واحد، ثم أتبعت ذلك بكتب أخرى.. فقفزت مبيعاتها إلى أرقام قياسية، حتى انضمت أماندا إلى نادي مليونيرات النشر الإلكتروني، وتدخل قائمة أكثر الكتّاب مبيعًا على أمازون كندل. لقد أصبحت "أماندا هوكينج" ظاهرة أدبية مذهلة، ومليونيرة في فترة وجيزة بفضل النشر الإلكتروني، ونجاحها المدهش قد لفت إليها أنظار دور النشر الورقية، وكان النشر الإلكتروني بمثابة بوابة عبورها لعالم الورق، لكن النسخ الرقمية لمبيعاتها ما زالت هي الأعلى.

عربيًا، صار هناك كتّاب رقميون أيضًا، لكنهم ما زالوا خارج دائرة الاهتمام حتى الآن، ولم ينالوا حظهم من الشهرة والتعريف بهم كما ينبغي، ربما لأن من يهاجمون الثقافة الإلكترونية هم الأعلى صوتًا الآن، كما أن الناشرين العرب الذين يتصدرون المشهد الثقافي، هم من أصحاب الكتب الورقية ويرفضون الكتب والكُتّاب الإلكترونيين.

أعتقد أن وقتًا قصيرًا فقط سيمر حتى نتقبل الكتاب الإلكتروني بشكل كامل ونتكيف معه، لعلنا نصل ذات يوم إلى ما وصل إليه العالم الغربي الآن.. فالنشر الإلكتروني قد فرض نفسه بقوة على المشهد الثقافي الغربي، وساعد ذلك على إطلاق منصات شهيرة، مثل "أمازون" و"كيندل" وغيرهما، وباتت الكتب الرقمية تحتل مكانة متقدمة في قوائم الأكثر مبيعًا، أو الـ"بيست سيللر".

كما أن المكتبات الإلكترونية قد أصبحت أمرًا واقعًا، وهو ما دفع عددًا من الجامعات في بعض الدول المتقدمة لترقيم مكتباتها، بالتزامن مع قيام محرك البحث العملاق "جوجل" بمشروع لترقيم ملايين الكتب، مع توفير الحماية اللازمة لهذا عن طريق مشروع جوجل للمكتبات. لكن "ما لا يدرك كله لا يترك جله"؛ فقد بدأت منذ أعوام محاولات وتجارب عربية مشابهة لمكتبة غوتنبرغ، صحيح أن عدد المؤلفات المنشورة عليها ما زالت قليلة، إلا أن الخطوة محمودة وفي طريقها للاتساع. من تلك المشاريع "مكتبة هنداوي" التي تأسست عام ٢٠٠٧م، ومتخصصة في نشر وترجمة الكتب والمقالات العلمية والثقافية، تعتبر من رواد النشر الإلكتروني بالعربية، وجميع ما تحويه من كتب إما انتهت حقوق ملكيتها أو أن المكتبة حصلت على حق النشر من ورثة المؤلف، على غرار اتفاقها مع أسرة "طه حسين" على نشر جميع أعماله إلكترونيًا وإتاحتها بالمجان.. كذلك مكتبة الشرق الأوسط العربية في جامعة ييل الأمريكية، وكذلك الأرشيف الرقمي للمجلات الأدبية والثقافية لشركة صخر، الذي يعدّ أول مبادرة عربية مجانية في رقمنة المجلات العربية القديمة وفهرستها وإتاحتها بالمجان إلى الجمهور، والمكتبة الرقمية للجامعة الإسلامية بغزة، وكذلك موقع القرية الإلكترونية الذي تقوم عليه مؤسسة غير ربحية مقرها أبو ظبي، تأسست عام ١٩٩٨م.. وهذه نماذج تستحق الثناء والتشجيع والعمل على توسيعها.

ختامًا، فإن الكتاب الورقي سيبقى، ربما حتى تتم معالجة المشاكل التي يواجهها الكتاب الإلكتروني تقنيًا وتسويقيًا وقانونيًا، حينها ربما تنقلب الآية ويصبح الحديث، عن ضرورة المحافظة على الكتب الورقية في مواجهة الغزو الرقمي لعالم الكتب. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

د. سامي محمود إبراهيم*

الإنسان الحقيقي هو مَن يُحسن التعايش مع أسوء الناس، وليس مَن يتعايش مع أحسن الناس فقط، بل مَن استطاع أن يذيب الغلظة في صدره كما يذيب الغلافُ الجوي الشُّهُب، فذلك إنسان حقيقي.

الموازين

اللامعقول وحداثة الوعي

تحول العالم إلى لعبة كونية خطيرة تحكمها القوانين السائلة ونهايات اللايقين، استخدمت في ذلك آليات التشتيت والتشكيك والاختلاف والتغريب والفوضى والعدمية واللامعنى واللانظام. حداثة تعمل في فضاءات اللامعنى تتميز بقوة التحرر من قيود التمركز، والانفكاك عن التقليد وما هو متعارف عليه، وممارسة الاختلاف والتفكيك والهدم والتشريح، والانفتاح على الغير عبر الحوار والتفاعل والتناص، ومحاربة البنية والانغلاق والتكامل، وتعرية الأيديولوجيات، والاهتمام بالمدنس والهامش والغريب والمتخيل والمختلف، والعناية بالعرق واللون والجنس والأنوثة وخطاب المابعديات المفتوحة.

يتفق الفلاسفة الألمان على أن مشروع الحداثة لم ينته بعدُ، ويواصل سعيه لتحقيق أهدافه، والدور الفعال في ذلك لوسائل الإعلام؛ فكل شيء هو النص والصورة، وإقناع المشاهد بعالم الخيال العلمي أو العالم الافتراضي الذي هو بمنزلة استعارة أو مجاز عن حالة الواقع.

ترتبط ما بعد الحداثة، بفلسفة التفكيك والتقويض، وتحطيم المقولات المركزية التي هيمنت على الثقافة الغربية من أفلاطون إلى يومنا هذا.. فهي موقف متشكك لجميع المعارف البشرية، وقد أثرت هذه المواقف على عديد من التخصصات الأكاديمية وميادين النشاط الإنساني.

كما اعتمدت ما بعد الحداثة على التناص واللانظام واللاانسجام والنسبية، وإعادة النظر في كثير من المسلمات التي تعارف عليها الفكر الإنساني، ومن

ثم تُزعزع ما بعد الحداثة، جميع المفاهيم التقليدية المتعلقة باللغة والهوية. وهذا يعني أن نصوص ما بعد الحداثة، لا تتقيد بالمعايير المنهجية، وليست ثمة قراءة واحدة للنص، بل قراءات مفتوحة.

ثم إن فكر ما بعد الحداثة جاء كردّ فعل على المقولات التي تحيل على الهيمنة والسيطرة والاستلاب.. كما استهدفت ما بعد الحداثة، تعرية المؤسسات الرأسمالية التي تتحكم في العالم وتحتكر وسائل الإنتاج، وتمتلك المعرفة العلمية.. وعملت ما بعد الحداثة، على انتقاد اللوغوس (تعني باليونانية الكلمة) والمنطق عبر آليات التشكيك والتشتيت والتشريح والتفكيك.

لقد ظهرت ما بعد الحداثة، في ظروف سياسية معقدة، وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وخاصة في سياق الحرب الباردة، وانتشار التسلح النووي، وإعلان ميلاد حقوق الإنسان، وظهور مسرح اللامعقول، وظهور الفلسفات اللاعقلانية.. وكانت ما بعد الحداثة مفهومًا مناقضًا ومدلولاً مضادًّا للحداثة. ولذلك احتفلت ما بعد الحداثة، بأنموذج التشظي والتشتيت واللاتقريرية كمقابل لشموليات الحداثة وثوابتها، وزعزعت الثقة بقوانين العقل والسببية والأنموذج الكوني.. حاربت العقل والعقلانية، ودعت إلى إيجاد أساطير جديدة تتناسب مع مفاهيمها التي ترفض النماذج المتعالية، وتضع محلها الضرورات الروحية والتغيير المستمر، وتبجيل اللحظة

إن ما يهم الإنسان في واقعه العملي، هو التأسيس والتأصيل وليس التفكيك والتقويض، مع السعي الجاد إلى البناء الهادف بدلاً عن الانغماس في عوالم افتراضية عبثية وعدمية وفوضوية.

حراء

الحاضرة المعاشة.. كما رفضت الفصل بين الحياة والفن، واتخذت التأويل والتأويل المضاعف قاعدة ومنهجًا.

تستند ما بعد الحداثة، في الفلسفة الغربية إلى مجموعة من المكونات والمرتكزات، ويمكن حصرها في المبادئ التالية:

١-التقويض: تهدف نظرية ما بعد الحداثة، إلى تقويض الفكر الغربي، وتحطيم أقانيمه المركزية، وذلك عن طريق التشتيت والتأجيل والتفكيك.

٢-التشكيك: أهم ما تتميز به ما بعد الحداثة، هو التشكيك في المعارف اليقينية، وانتقاد المؤسسات الثقافية المالكة للخطاب والقوة والمعرفة والسلطة.

٣-العدمية: من يتأمل جوهر فلسفات ما بعد الحداثة، فإنه سيجدها فلسفات عدمية وفوضوية، تقوم على تغييب المعنى وتقويض العقل والمنطق والنظام والانسجام. بمعنى أن فلسفات ما بعد الحداثة هي فلسفات لا تقدم بدائل عملية واقعية وبراجماتية، بل هي فلسفات عبثية لا معقولة، تنشر اليأس والشكوى والفوضى في المجتمع.

٤-التفكك واللاانسجام: إذا كانت فلسفة الحداثة أو تيارات البنيوية والسيميائية تبحث عن النظام والانسجام، وتهدف إلى توحيد النصوص والخطابات، وتجميعها في بنيات كونية، وتجريدها في قواعد صورية عامة من أجل الانسجام والتشاكل، وتحقيق الكلية والعضوية الكونية،

فإن فلسفات ما بعد الحداثة، هي ضد النظام والانسجام، بل هي تعارض فكرة الكلية، وفي المقابل تدعو إلى التعددية والاختلاف واللانظام، وتفكيك ما هو منظم ومتعارف عليه.

٥–هيمنة الصورة: رافقت ما بعد الحداثة، تطور وسائل الإعلام، فلم تعد اللغة هي المنظم الوحيد للحياة الإنسانية، بل أصبحت الصورة هي المحرك الأساس للتحصيل المعرفي ومعرفة الحقيقة.

٦–الغرابة والغموض: تتميز ما بعد الحداثة، بالغرابة، والشذوذ، وغموض الآراء والأفكار والمواقف، فتفكيكية "جاك ديريدا" –مثلاً– ما زالت مبهمة وغامضة من الصعب فهمها واستيعابها، حتى إن مصطلح التفكيك نفسه أثار الكثير من النقاش والتأويلات المختلفة في حقول ثقافية متنوعة.

٧–التناص: يعني التناص استلهام نصوص الآخرين بطريقة واعية أو غير واعية؛ بمعنى أن أي نص، يتفاعل ويتداخل نصيًّا مع النصوص الأخرى امتصاصًا وتقليدًا وحوارًا. ويدل التناص في معانيه القريبة والبعيدة، على التعددية، والتنوع، والمعرفة الخلفية، وترسبات الذاكرة.. وقد ارتبط التناص نظريًّا مع النقد الحواري.

٨–تفكيك المقولات المركزية الكبرى: استهدفت ما بعد الحداثة، تقويض المقولات المركزية الغربية الكبرى كالدال والمدلول، واللسان والكلام، والحضور والغياب، إلى جانب مفاهيم أخرى كالجوهر والحقيقة والعقل والوجود والهوية.

٩–الانفتاح: إذا كانت البنيوية الحداثية قد آمنت بفلسفة البنية والانغلاق الداخلي، وعدم الانفتاح على المعنى، والسياق الخارجي والمرجعي، فإن ما بعد الحداثة قد اتخذت لنفسها الانفتاح وسيلة للتفاعل والتفاهم والتعايش والتسامح.. ويعد التناص آلية لهذا الانفتاح، كما أن الاهتمام بالسياق الخارجي، هو دليل آخر على هذا الانفتاح الإيجابي التعددي.

١٠–قوة التحرر: تعمل فلسفات ما بعد الحداثة، على تحرير الإنسان من قهر المؤسسات المالكة للخطاب والمعرفة والسلطة، وتحريره أيضًا من أوهام الأيديولوجيا والميثولوجيا، وتحريره –كذلك– من فلسفة المركز، وتنويره بفلسفات الهامش والعرَضي.

١١–الدلالات العائمة: تتميز نصوص وخطابات ما بعد الحداثة، بخاصية الغموض والإبهام والالتباس؛ بمعنى أن دلالات تلك النصوص أو الخطابات، غير محددة بدقة، وليس هناك مدلول واحد، بل هناك دلالات مختلفة ومتناقضة ومتضادة ومشتتة، تأجيلاً وتقويضًا وتفكيكًا، وبتعبير آخر، يغيب المعنى ويتشتت عبثًا في فلسفات ما بعد الحداثة.

١٢–التخلص من المعايير والقواعد: ما يعرف عن نظريات ما بعد الحداثة في مجال الفلسفة والنقد والأدب، تخلصها من النظريات والقواعد المنهجية، فـ"ميشيل فوكو" يسخر من الذي ينطلق من منهجيات محددة يكررها دائمًا ويحفظها عن ظهر قلب، فيرى أن النص أو الخطاب متعدد الدلالات، يحتمل قراءات مختلفة ومتنوعة.. كما أن "ديريدا" يرفض أن تكون له منهجية محددة؛ حيث لا يوجد المعنى أصلاً ما دام مقوضًا ومفككًا ومشتتًا، فما هناك سوى المختلف من المعاني المتناقضة مع نفسها كما يقول "جاك ديريدا".

١٣–ما فوق الحقيقة: تنكر فلسفات ما بعد الحداثة، وجود حقيقة يقينية ثابتة، فـ"نيتشه" –مثلاً– ربط غياب الحقيقة بأخطاء اللغة وأوهامها، و"جان بودريار" الفيلسوف الفرنسي ينكر الحقيقة، ويعتبرها وهما وخداعا، كما يربط الحقيقة بالإعلام الذي يمارس لغة الخداع والتضليل والتوهيم والتفخيم.

وأيضًا من رواد فلسفة ما بعد الحداثة، المفكر الفرنسي "جان ليوتار"، الذي أنكر الحقيقة مثل نيتشه؛ فالمعرفة برأيه، لا يمكنها أن تقدم الحقيقة، لأنها تعتمد على ألاعيب اللغة التي هي دائمًا ذات صلة بسياقات محددة. وأهم ما يطرحه "جان فرانسوا ليوتار" في إطار ما بعد الحداثة، هو التحرر من الالتزام بالقواعد المنهجية والمعايير المسبقة.

ويعدّ "جاك ديريدا" كذلك، من أهم فلاسفة ما بعد الحداثة، حيث اهتم بتفكيك الثقافة الغربية، وتقويض مقولاتها المركزية بالنقد والتشريح، بغية تعرية المؤسسات الغربية المهيمنة. ومن ثم فقد ثار "دريدا" على مجموعة من المقولات البنيوية كالمدلول والصوت والنظام والبنية، وغيرها من المفاهيم، ودعا إلى تعويض الصوت بالكتابة، وأن المعنى لا يبنى على الإحالة المرجعية، بل على الاختلاف بين المدلولات المتناقضة. كما أن "دريدا"

hiragate.com

hiragate.com

ينكر القواعد والتعاريف والمعايير والمنهجيات الثابتة.

لذا، فالتفكيكية، منهجية وليست منهجية، لها خطوات وليس لها خطوات، هي ما بين بين، بين الداخل والخارج. ما يهمها هو تفكيك الفكر والنص والخطاب، وذلك عبْر آلية التشتيت والتقويض والهدم لبناء المعاني المختلفة والمتناقضة، والتشكيك في المسلمات اليقينية ودحضها عن طريق النقد والتشريح والاختلاف.

هذا، وقد انتقد "جاك ديريدا" الميتافيزيقا الغربية التي تمثل الحضور واللغة والدال الصوتي. ومن ثم، قوض مجموعة من المفاهيم السائدة، مثل الهوية، والجوهر، واللوغوس، والعلامة، والمدلول، والظاهرة، والنظام، والكلية، والعضوية، والجوهر، والواقعية، والحقيقة، واليقين.

هذا، ويعد "ميشيل فوكو" كذلك، من رواد ما بعد الحداثة، وقد اهتم كثيرًا بمفهوم الخطاب والسلطة والقوة، حيث كان يرى أن الخطابات ترتبط بقوة المؤسسات والمعارف العلمية؛ بمعنى أن المعارف في عصر ما، تشكل خطابًا يتضمن قواعد معينة يتعارف عليها المجتمع، فتشكل قوته وسلطته الحقيقية. هذا، ولقد اهتم "فوكو" كثيرًا بتحليل الخطاب، ورفض التقيد بالمناهج الجاهزة واستعمال آليات مكررة، واعتبرها بمثابة علبة للمفاتيح. فالنص منفتح ومتعدد، لا يمكن قراءته قراءة أحادية فقط؛ بل إن "فوكو" يؤمن بتعدد القراءات واختلافها من قارئ إلى آخر.

ومن جهة أخرى، اهتم "جيل دولوز"، بالتعددية والانفتاح على الآخر إدراكًا وتفاعلاً، حيث اعتبر الفلسفة بأنها فلسفة التعددية، ومن ثم فقد انتقد الهوية وفلسفة الواحد والتطابق.

بيد أن من أهم سلبيات ما بعد الحداثة، اعتمادها على فكرة التقويض والهدم والفوضى، إذ لا تقدم للإنسان البديل الواقعي والثقافي والعملي، فمن الصعب تطبيق تصورات ما بعد الحداثة واقعيًا لغرابتها وشذوذها. وبذلك، استهلكت ما بعد الحداثة، قدرتها الإستراتيجية الفعالة في إبراز التحيزات المجحفة، دون أن يكون لها موقف أخلاقي أو سياسي أو اجتماعي. ويعجب المرء من المفارقة بين قوتها العدائية ضد التحيزات، والنهاية المحايدة التي تنجم عن مثل هذه الحرب الضروس. ولعل مثل هذه النهاية هي التي دعت الكثير إلى توجيه أصابع الاتهام. فهناك من يقول: إن هذه السمة ذاتها، هي التي تجعل ما بعد الحداثة، متواطئة مع الأشكال الشمولية القمعية التي تسعى إلى الهيمنة والسيطرة والظلم الاجتماعي الاقتصادي.

لا غرو والحالة هذه أن تدخل ما بعد الحداثة، مجال العلوم الإنسانية حديثًا جدًّا، وحتى هذا الدخول لم يتسم بالفعالية نفسها التي عرفتها في الفن والأدب والموسيقى والاستعراضات المسرحية، وغيرها من مشارب الحياة اليومية، التي لا يترتب عليها اتخاذ قرارات حاسمة تمس حياة الإنسان مباشرة. ولعل المفارقة القارة التي تجعلها عاجزة، هي معاداتها للثنائية الضدية، إذ إن التضاد أساس المعرفة وأساس التحيز، وبدون التضاد لا يمكن معرفة ما إذا كان توجه ما أفضل من غيره.

ولذلك، فإن دفاع ما بعد الحداثة عن الهامش، جعلها تتقمص خصائصه، إذ انقلب على أهميتها، فأصبحت هامشية لا تغير من الواقع شيئًا. وككل هامشي، أصبحت ما بعد الحداثة، تتمنى أن يتحقق الوئام فجأة، فتسود العدالة، وتختفي الطبقية الهرمية، ويختلط المركز بالهامش، وتلغى الفوارق من غير تحيز أو غاية.. هذه هي الطوباوية التي تحلم بها كل المثاليات حداثية كانت، أو ما بعد حداثية.

ويلاحظ أن نظرية ما بعد الحداثة، تقوض نفسها بنفسها نظرًا لطابعها الفوضوي والعدمي والعبثي. وفي هذا السياق، يقول "دافيد كارتر": وقد اجتذبت ما بعد الحداثة، نقدًا إيجابيًا وسلبيًا على حد سواء، فيمكن أن ينظر إليها على أنها قوة محررة إيجابية تزعزع استقرار الأفكار المسبقة عن اللغة وعلاقتها بالعالم، وتقوض جميع لغات الذات التي تشير للتاريخ والمجتمع. ولكن تعدّ حقبة ما بعد الحداثة أيضًا، أنها تقوض افتراضاتها الخاصة، وتحجب جميع التفسيرات المترابطة، وبالنسبة للكثيرين تعدّ غير مؤثرة وغير ملتزمة من الناحية السياسية.

إلى هذا الحد، نجد أن ما يهم الإنسان في واقعه العملي، هو التأسيس والتأصيل وليس التفكيك والتقويض، مع السعي الجاد إلى البناء الهادف بدلاً عن الانغماس في عوالم افتراضية عبثية وعدمية وفوضوية. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

hiragate.com

عز الدين عناية*

دَرْب سدرة المنتهى
كما لاح للفرنسي رينيه غينو

في مؤلَّف بعنوان "المسلمون الجدد: المهتدون إلى الإسلام" صادر عن منشورات لافورو الإيطالية، تناول عالم الاجتماع الإيطالي "ستيفانو أَليافي" -بالبحث والتحليل- ظاهرة التحول الديني إلى الإسلام في الغرب المعاصر. وهي ظاهرة لافتة تمسّ شرائح اجتماعية متنوعة، حيث يرصد الباحث مختلف أشكال الاهتداء؛ من الاهتداء البراغماتي بقصد الزواج، مرورًا باهتداء "البزنس" كما يطلق عليه بغرض تيسير الأشغال والأعمال، إلى الاهتداء الروحي المتعطش إلى اليقين، وغيره من ضروب الاهتداء. والمفكر الفرنسي "رينيه غينو" (René Guénon) (١٨٨٦-١٩٥١م)، الكاثوليكي المنشأ -تلقى تعميده بعد شهرين من مولده- أحد هؤلاء الذين سلكوا طريق الروح للولوج إلى عالم الإسلام بعد مسار حافل بالتجوال بين مختلف أنواع التقاليد الروحية الكونية، إلى أن انتهى به المطاف عند التقليد الروحي الإسلامي الذي وجد فيه ضالته. وطريق الروح طريق وعرٌ مليءٌ بالبروق الخادعة، كما وصف تشعّباتها أبو حامد الغزالي في "المنقذ": إن اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطُّرُق، بحرٌ عميقٌ غرق فيه الكثيرون، وما نجا منه إلا الأقلّون.

أزمة المعنى في الغرب

فمنذ عهد الصبا بدأ "غينو" في التردد على الجمعيات الباطنية والأخويات الروحية، تحت دفْعِ قلق عميق

يسكنه، حتى تسنّى له تأسيس كنيسة غنوصية بالمعنى الروحي والفكري، أطلق عليها رفقة صحبه "الكنيسة الغنوصية"، وقد زاد ولعه بعالم الروحانيات والأسرار مع توالي السنين. فكان انضمامه في مرحلة أولى، إلى تجمعات غنوصية وماسونية متنوعة ذات منزع باطني حتى بات أحد أقطابها في فرنسا. مرّ أثناءه بترقٍّ وتدرّج في هذه التنظيمات، من مريد متحمّس إلى "غورو" منظّر، ومن مراجِع إلى منتقدٍ فمتمرّدٍ على الماسونية وما شابهها من تنظيمات الأسرار، خالصًا إلى الإقرار بما انحدرت إليه وكالات المقدّس من تدهور فعلي وعملي، من مذهب للبناء الحر إلى انغلاق داخل سجن الأسرار. يقول في كتاب "الغنوص": "يتعذّر الجمع بين مذاهب متباينة وحشر الجميع تحت مسمّى واحد ألا وهو الروحانية؛ وسائر هذه العناصر لا يمكن أن تشكّل عمارة متناسقة ثابتة. والخطأ في مجمل تلك المذاهب الروحية المزعومة، أنها ليست سوى هياكل مادية معروضة في قالب راق". إذ حصلت لديه قناعة أن التجمعات الباطنية لا تحوي أية تعاليم، لما تدفع إليه أعضاءها نحو أشكال زائفة من الروحانية غير متناسقة وتفتقر إلى الأسس.

ولكن "غينو" يبقى وليد عصره المشوب باللايقين، فقد شبّ في زمن شهدت فيه المرجعية الدينية المسيحية تراجعًا وانكماشًا؛ دبّت النسبية في الاعتقادات، مع اعتداد بالعقل وهيام بالعقلانية، مصحوبَيْن برؤية وضعية للكون والعالم. مع ذلك لم يجد المنزع الوضعي هوى لديه، وهو ما كان يمثّل موضة حينها، وقد بلغ مداه في وجودية شريدة. فقد كانت أزمة الغرب بالنسبة إليه، هي أزمة روح قبل أن تكون أزمة عقل. صحيح أن الغرب قد أضحى معتدًّا بعقلانيته ووضعيته، ولكنه في الآن بات خاوي الروح كئيبًا؛ إذ ثمة تحررٌ للإنسانية على مستوى العقل رافقه إنهاك لروح الفرد. لكن في خضمّ هذا البحث عن روح العالم وجوهره مع "رينيه غينو"، ما كان الانفتاح على التراث الروحي العالمي قطيعةً مع الإرث الكاثوليكي، بل إدراكًا لضمور المعنى داخل هذا التراث، وما كان رفضًا للمسيحية بل إيمانًا منه بأن الرأسمال الروحي يتوزع بالتساوي بين أديان شتى.

فقد عرَف جِيلُ "غينو"، الذي شهد الحربين، اهتزازًا قويًّا تجلى بالفعل في أزمة وجودية حادة. وبات ذلك الجيل يدرك إدراك اليقين أن تلك الأزمة عميقة، ومن هنا تسرّب الشك وعمّت النسبية. وكان "غينو" غالبًا ما يردد "في ذواتنا فقط يمكن العثور على مبادئ هذه المعرفة وليس في مواضع خارجية". وضمن هذا السياق التاريخي جاء الانفتاح على روح الشرق بعيدًا عن الاستشراق الاستعلائي. فكان محامي الشرق في زمن، بلغ فيه الاستشراق شأوًا بعيدًا في التحقير والاستهانة بحضارات عريقة استند إليها الغرب الحديث في نهضته.

في زمن كان فيه العالم الإسلامي يشهد انهيارًا مريعًا، كان "غينو" يبحث عن روح الإسلام النقية، وما كانت معرفته بالتراث الروحي الإسلامي متأتية من تأمل في المدونات والمتون فحسب، بل باحتكاك مباشر بمن يكابدون في طريق العشق.

حراء

الإسلام الروحي يغري الغرب

والجلي في الغرب الحديث، أن المدخل الروحي الإسلامي بات أعلاها مقامًا وأبرزها نشاطًا -وربما أيسرها- في تشوّف الغربي المسيحي، أو اللاأدري أيضًا، إلى الحاضنة الروحية الإسلامية، بعد أن باتت القنوات الأخرى شبه مسدودة إن لم نقل مشبوهة بفعل عوامل عدّة. ويتضح من متابعتنا لظاهرة التحول في أوساط الغربيين نحو التقاليد الدينية الشرقية عامة -ولا سيما منها البوذية والطاوية والإسلام- أن الغربي لا ينجذب للمؤسّسة الدينية المغايرة برمتها، بل غالبًا ما يغريه مجال بعينه يجد فيه ضالته. يقول الفرنسي "فريدريك لونوار" في دراسة له عن أشكال التدين الحديث في الغرب، ضمن "موسوعة الأديان" (١٩٩٧): "إنها الطرق الصوفية أساسًا التي تجذب الغربيين، وأشهرها حركات الدرويش الدوّار برقصته الدائرية الذائعة الصّيت، التي تؤدّي بالمريد إلى معانقة الوجد الرّوحي، حيث تعرض الرياضة الروحية نفسها بكونها روح الإسلام. وبوجه عام تغري تعاليم الصوفية الغربيين المجذوبين بموجب خاصيات ثلاث: السهر على تبليغها من طرف معلّمين روحيين عارفين، عدم إهمالها حركات الجسد المشفوعة

hiragate.com

بالتراتيل الروحية، وتجمعاتها المتحمسة والنشيطة".

لذلك نجد الإسلام الروحاني هو الوجه الأكثر إغراء خارج العالم الإسلامي، ويكفي أن نلقي نظرة على ترجمة النصوص الإسلامية إلى اللغات الغربية حتى نجد الأدب الصوفي في صدارتها. وبشكل عام يمكن اعتبار الكَلَف بالتصوف في الغرب من حيث الدراسة والمتابعة، هو بمثابة الموضة، ناهيك عن أن ذلك التعاطف مع التصوف يأتي بوصفه ضحية الأرثوذكسية الإسلامية بوجهيها السني والشيعي. تذكي ذلك الجمعيات الروحية والصوفية الناشطة في الغرب، وهو ما لا ينعم به الإسلام السياسي الذي غالبًا ما يثير النفور. علاوة يتميز الإسلام الطُّرُقي في الغرب بالعمل في صمت، على خلاف الإسلام المؤسساتي الذي تصحب عمله الضوضاء. مع أن هذا الإسلام الطرُقي أوروبي، ويتكون أساسًا من المهتدين، في حين أن الإسلام المؤسساتي -وعلى خلافه- يتكون من مسلمين من أصول مهاجرة، سواء أكانوا من الجيل الأول أو الثاني أو الثالث.

ففي التاريخ الحديث، غالبًا ما يكتشف الغربيون المهتدون الإسلامَ عبر إسلام الزوايا والطرق، لتميّزه بالألفة والبساطة والعفوية والمحبة، في مجتمعات طاحنة لروح الفرد وحياته. فيجتمع "الحيارى" حول ما يفتقدون إليه جميعًا، حول ذواتهم المهزوزة في مجتمعات تناست روحها. والطرُق الصوفية عامة، يمكن أن تكون فضاء ثقافيًا إيجابيًا، ويمكن أن تتحول إلى شكل للضلال والانحراف كما يقول الباحث "ستيفانو أَلِيافي".

فقد روى لي يومًا كاتبٌ جزائري أقام سابقًا في فرنسا، له اهتمام بالتصوف والمتصوفة، أن جل الدارسين الغربيين لتراث الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، غالبًا ما يقعون في أسره ويكتشفون الإسلام من بابه. في واقع الأمر أن بعض الفلاسفة والشعراء والمتصوفة، لهم سطوة وسحر على قرائهم، نجد ذلك مع "هايدغر" و"نيتشه" و"ابن خلدون" و"ابن عربي"، ولا يجد القارئ محيصًا منهم، حيث لا يلتهم القارئ أعمالَهم، بل يلتهمونه هم بأرواحهم. و"رينيه غينو" من هذا الصنف الآسر في الغرب، لا سيما في أوساط المولَعين بالدراسات الروحية ودراسات الأديان، وربما ذلك ليس له ما يضاهيه في الأوساط العربية أو الإسلامية. ولعل بعض الشوائب قد أبقت عبد الواحد يحيى (غينو سابقًا) خارج الاحتفاء به من قبل الإسلام النهضوي أو الإسلام الإحيائي عامة، لكون الرجل باطنيًا وماسوني المنشأ، مما أبقاه في دائرة المشبوهين.

بحثٌ عن روح الإسلام النقية

في السيرة المدوَّنة من قِبل "بول شاكورناك" "حياة "رينيه غينو" البسيطة" يقول: "نحن بصدد الحديث عن شخص يتعذّر تصنيفه، فليس ثمة أي لقب من الألقاب السائدة يمكن أن ينطبق عليه. والمتمعّن في كتابات "غينو" ومقالاته يدرك يقينًا ذلك، فلا هو بالفيلسوف وإن درَس ودرّس الفلسفة (كان ذلك في مدينة سطيف في الجزائر سنة ١٩١٧)، ولا هو بالقائل بالمذهب التيوصوفي، وقد محّص تقاليد من سبقه ومن جايَلَه، ولا هو بالمستشرق مع إلمامه بتفاصيل الشرق بشكل مدقق، ولا هو بالحداثي أو التراثي وإن شغلته وقائع الإنسان قديمًا ومصائره حديثًا. إن عبدالواحد يحيى (رينيه غينو) خارج تلك التصنيفات، وهو بالفعل إنسان رباني باحث عن معراج ملكوت النور طلبًا لوجهه تعالى، وقد شاء القدر أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في أرض مصر، وهو يردد اسمه جل شأنه "الله.. الله".

ففي زمن كان فيه العالم الإسلامي يشهد انهيارًا مريعًا، كان "غينو" يبحث عن روح الإسلام النقية، وما كانت معرفة الرجل بالتراث الروحي الإسلامي والهندي، متأتية من تأمل في المدونات والمتون فحسب، بل باحتكاك مباشر بمن يكابدون في طريق العشق. كان يطوي المعارف طيًّا وتقاليد الأديان في قبضته، فقد يسّر له إلمامه باللغتين العربية والسنسكريتية ذلك، فضلاً عن إتقانه اللاتينية والإغريقية والعبرية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والروسية والبولندية. يسّر له ذلك التعدد اللغوي، سُبلَ المقارنة والمقابلة بين العقائد والمفاهيم. ولذلك مما يميز المسار الغينوي في التحول نحو الإسلام، هو الرصانة والتأمل والتريث، أي النضج على نار هادئة كما يقال، وهو ما يختلف مع التحول على عجل، الذي غالبًا ما يعقبه رحيل نحو معتقد آخر أو انحراف. ■

(*) أستاذ بجامعة روما / إيطاليا.

hiragate.com

قصة

سمر فتحي*

لستَ وحيدًا

في سؤال مفاجئ من ابن العاشرة لصاحب المرسم الذي يذهب إليه كل صباح ليلمّع حذاءه: أتعرف كيف جئت للحياة؟ ولماذا؟ ارتبكت الأحرف في فم الرسام، وقرر أن يجيب عن سؤاله بما يحبه الفتى، رفع الستار من على لوحة تبدو لأول وهلة لشاب يعانق فتاة، أومأ الفتى ثم اقترب من الصورة، اقترب أكثر وردد صرخته المكتومة، أزاح الغطاء من على أخرى، حروف تتطاير في الهواء، وجوه متجهمة، أطفال نصف عراة، طرق خالية، قلوب نصفها أحمر والآخر يميل إلى السواد، في جانب منها يبدو قطيع صغير من الأسود مشرئب الرؤوس، في الجانب الآخر تقف امرأة تمد يدها لتمسح دمع صغير، في أعلى الصورة على الجانب الأيسر قمر في طريقه للاختفاء، وعلى الجانب الأيمن يتهادى نور الشمس في الظهور.

يتلمس الفتى حروفًا بارزة على لوحة "من رحم اليأس تولد الحياة" سمع صوت الرسام يلامس روحه: كنت مثلك، أشبهك، يتيمًا، لطيمًا، لقيطًا، لا أعرف مَنْ أكون، لمَّعتُ أحذية، نمتُ على أرصفة الطرقات، سرقتُ نظرات سعادة لطفل تحمله أمه، لم يحطني مكانٌ، صارعني الزمن فهزمته، أدخر من المال لأشتري ساعة تنبهني تشغلني، لا أعرف وقتها لماذا انتبهت للزمن. كانت أيامي تشبه بعضها، تعهدني صاحب هذا البيت، كنت أرى في الرسم متنفسًا لأحلامي الضائعة على محطات الفقر.. علمني كيف أخط خطوطًا، كل لوحة رسمتها كانت نقطة، خطًا، كوَّنت من نقاط كثيرة قمرًا سطع في قلبي. أخبرني أنه وحيد أراد أن يستبقيني في المكان، يخاف أن تأتيه الأزمة وتتعفن جثته، قتلته الوحدة، وقتلني ضجيج الشوارع التي أسكنها.. أخذني وقبل أن يعلمني الرسم كما وعدني، علمني كيف أقرأ، كيف أعيش، كيف أكون إنسانًا.. أصبحت أرتاد كل دول العالم، في الصباح أشرب قهوتي على موسيقى بيتهوفن.. قالوا إنه أصم، في سيمفونيته التاسعة لم يسمع صوت أنامله، بدقات قلبه وازن الإيقاع.. وقتها أيقنت أن الأشياء عندما نتعودها، نحبها، تصبح كعضو من أعضاء الجسد يقوم بوظيفته دون إرادة منّا، حين نحاول إيقافها لا نستطيع، بيتهوفن فَقَدَ أدق الحواس، يُسمع الناس ما حُرِمَ من سماعه، كبائع ورد فقد بصره، كعروس تنتظر شهيدها بفستانها الأبيض.. علمني كيف أعيش، دربني كيف أرسم بلون ألف حياة.

حين انتهى من حديثه، لاحظ أن ملامح وجه الفتى تغيرت؛ يتصبب العرق من جبينه، يعلو صوت نفسه، تأرجح يمنة ويسرة ثم عاد إلى اتزانه، وقال للرسام: أخاف أن تتعفن جثتي في الطرقات، ثم انحنى على حذائه يلمّعه، انتفض جسد الرسام وسحب قدمه إلى الخلف في سرعة فكاد يفقد توازنه، اتكأ على كتف الفتى وظل دقائق والفتى لم يبد ضجرًا من ثقله، ثم رفع الرجل ذراعه وقال: تستطيع؟ نظر إليه مستفهمًا فقال: تستطيع أن تحملني وحدك في شيخوختي، تحملني حين تستيقظ ذات صباح وتفتح نوافذ هذا البيت فتكتشف أن روحي فارقت هذا العالم. ■

(*) كاتبة وأديبة مصرية.

علوم

سعيد سهمي*

كيف تسهم الرقمية في محو الأمية؟

لا جدال في أن الرقمية أسهمت إلى حد كبير في القضاء على الأمية بمعناها التقليدي، ونقلت مَن يشتغلون على التكنولوجيات الحديثة إلى مصاف المعرفة والوعي إلا بالنسبة للذين لم يتمكنوا بعدُ من التحصُّل على الهواتف الذكية والحواسيب وغيرها، أو يرفضون ذلك خوفًا من غزوها لعالمهم التقليدي. فقد أصبح بإمكان الجميع اليوم -حتى الذين لم يرتادوا المدرسة- أن يقرؤوا الرسائل وأن يكتبوا الأرقام التي تتصل بهم على الهاتف، وأن يشتغلوا بالآلة الحاسبة وأن يردوا على الرسائل.. بل أصبح مِن هؤلاء مَن اشتغل بصيانة الحواسيب والهواتف الذكية وعلاج مشاكلها، بشكل لا يجيده العلماء وخريجو المدارس العليا.

إن هذا بالضرورة يدعو إلى طرح السؤال: هل بقي أميٌّ في عالم اليوم؟ الحال أن الأغلبية العظمى -إن لم نقل الكل- أصبح يمتلك القدرة على الكتابة الرقمية، وعلى تدوين الاسم، والتعليق على الصور، والرد بالإشارات والأيقونات الدالة على الفرح والغضب والحب والحزن في الرسائل الإلكترونية.. وما إلى ذلك من أمور تجعل في الواقع الجميع قادرًا على الكتابة والقراءة بوسائط الاتصال الحديثة.

الرقمية وتغيرات الكتابة والقراءة

إذا كانت الأمية في العُرف هي عدم القدرة على القراءة والكتابة، فإننا في الواقع أمام أشكال جديدة للتعبير والكتابة، حيث إن

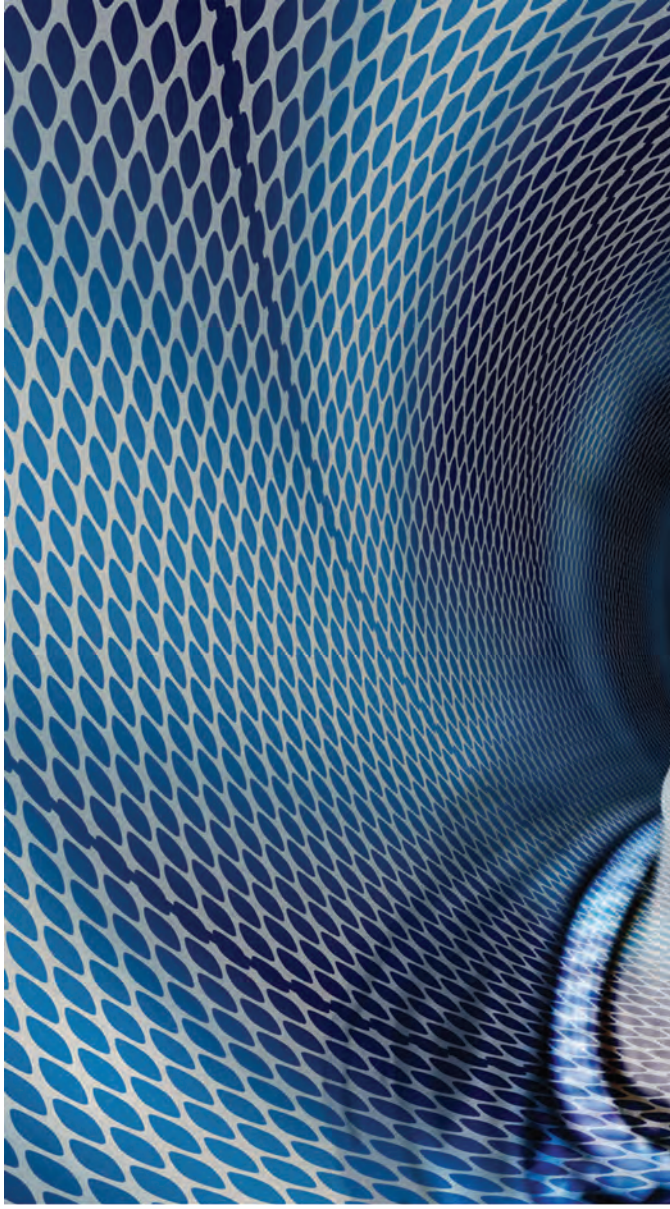

الإنسان اليوم تجاوز التقليد الذي يعتمد على القلم في التعبير، والأغلبية -حتى المثقفين الذين يكتبون- قد استهوتهم الرقمية، بل إنها أصبحت ضرورية، بحيث إنك تجد الكاتب والصحفي قد لا يستعمل القلم طيلة أسبوع أو أسبوعين ولا يوظف إلا الكتابة الإلكترونية.. وذلك حال الناس الذين كنا نعدّهم أميين، حيث أصبحت لديهم القدرة على التعبير والكتابة باستعمال أدوات كتابة متنوعة ومتعددة تعتمد الأيقونات والصور والإشارات، فضلا عن لغة استهلاكية قد لا تحترم القواعد اللغوية إلا أنها معبرة ومفهومة من طرف المتلقي.. وهو ما يدعو إلى التفاعل مع المعاني الجديدة للكتابة، والتي يشتغل بها الأفراد اليوم بعيدًا عن الأساليب التقليدية، ويدعو أيضًا إلى إعادة النظر في لغة الكتابة نفسها.

والواقع أن هؤلاء الذين كنا نعدّهم أميين، أصبح بإمكاننا اليوم أن نسمّيهم حداثيين بخلاف عدد من المثقفين، من خلال تعاملهم الدائم مع الآلة الحاسبة واستثمارهم في الاقتصاد الرقمي، وتعاملهم تجاريًّا مع الرقمية عبر عقد الصفقات التجارية عن بعد، واستثمارهم ماليًّا في البورصات العالمية عن بعد، واستعمالهم الحواسيب في التعامل مع الزبائن والعملاء التجاريين والشركات التي يتعاملون معها.. وذلك كله دون أن يسبق لهم ولوج المدرسة، مما يدعو إلى إعادة النظر في مفهوم الأمية، ومفهوم القراءة والكتابة.

أمية التعامل مع الرقمية

لقد صرنا اليوم أمام أمية جديدة تتمثل في أمية التعامل مع الرقمية من خلال عدم القدرة على الاندماج مع أشكال التواصل الإلكترونية الجديدة عبر بواباتها المتعددة، مثل الفيسبوك (facebook) والتويتر (twiter) والانستغرام (instagram) والواتساب (whatsApp)، وأشكال التراسل الإلكتروني، والكتابة الإلكترونية، والاشتغال على الوورد (Word)، والاعتماد في الحساب والمحاسبة على الإكسيل (Excel)، وتنظيم الإدارة بالأكسيس (Access)، واعتماد تقنيات العرض بالباور بوينت (PowerPoint)، والقدرة على توظيف واستثمار التكنولوجيا الحديثة من قبيل الداتاشو (Data show)، وعلى معالجة مشكلات الحاسوب وصيانته، وعلى التحكم في برامج العقل الإلكتروني (Logiciels)، وعلى معالجة المعلومات.

إن البعض -للأسف- ما زال غير قادر على استعمال الحاسوب والهواتف الذكية واللوحات الإلكترونية بشكل صحيح، بل إن البعض من المثقفين والأساتذة، يفتخرون بعجزهم عن تشغيل الحاسوب بله توظيفه في مهامهم الإدارية والمهنية، وذلك بدعوى أنه يفضل الكتاب الورقي وإن كان الكتاب بدوره قد تغير مفهومه، وأصبحت الكتب الأكثر رواجًا ومقروئية هي الكتب الإلكترونية.. بل يمكن الحديث مستقبلاً عن عهد نهاية الكتاب الورقي وتعويضه بالكتاب الإلكتروني الذي غزا اليوم المدارس والجامعات العالمية، وأصبح صديق

الطالب والأستاذ والباحث والعامل لتوافره وسهولة حمله.

الرقمية والتعليم

فضلاً عن مساهمة الرقمية في محو الأمية، فإنها أسهمت بشكل كبير في النهوض بالتعليم، وذلك من خلال الوسائل الحديثة التي تُعين على تجويد التعلمات وتشغيلها، بحيث تجعل المتعلم أكثر ارتباطًا بما يدرسه؛ فأصبحت هذه الوسائط جزءًا لا يتجزأ من حياته، وصارت مشاهدة شريط أو الاستماع إليه، أو مشاهدة أفلام تربوية أجدى بكثير من إملاء ملخص من قبل المدرس، ذلك أن الصورة تعتبر -دون شك- أكثر جاذبية من غيرها، ولذلك فضلت كثير من الدول المتقدمة الارتقاء بالمدرسة إلى الرقمية.

فضلاً عن ذلك، فإن الوسائط الحديثة قد أسهمت في تطوير بناء الدرس، من خلال السيناريوهات البيداغوجية التي عوضت عن جذاذات تحضير الدروس، وهو ما يمكن معه الانتقال الرقمي في وسائط التعليم والتعلم من خلال خلق ما يمكن تسميته "التعليم التفاعلي"، حيث يربط المدرس التعلمات المنجزة مع عوالم متعددة تجمع وسائط متعددة تشارك في العملية التعليمية التعلمية، بحيث يمكن في درس للتاريخ -مثلاً- أن ننقل التلميذ إلى مشاهد تاريخية حية عبر الصورة، وإلى أفلام قصيرة تاريخية، وإلى لقطات متعددة، وشهادات وربورطاجات وسيناريوهات، ومشاهد تتفاعل فيها الكتابة، والصورة، والصورة المتحركة، والفيديو.. وتتعدد فيها الحواس الموظفة في التعلم، مما يوجِد إقبالاً أكبر على التعلم.

التعلم الرقمي وبناء شخصية الطفل

لا شك أن الرقمية -رغم مخاطرها- قد أسهمت في تعليم الأطفال الصغار، من خلال دخول الطفل عبرها إلى عوالم جديدة للتعلم قبل التحاقه بالمدرسة، بحيث إن المعينات الحديثة حببت إلى الأطفال التعلم لا سيما تعلم اللغات؛ فقد أسهمت القنوات التلفزيونية في بث الدروس اللغوية عن بُعدٍ في أشكال تنخرط فيها فنون متعددة أبرزها الموسيقى، كما عملت مواقع التواصل الاجتماعي على بث فيديوهات تعلم اللغات والرسم والقرآن وغيرها من الفنون والعلوم، فأصبحنا نجد أطفالاً نابغين في إتقان اللغات الأجنبية، وفي تعلم الرسم والموسيقى وغيرها بفضل الوسائط التكنولوجية الحديثة.

هكذا أصبحنا اليوم أمام مدرسة حقيقية لدى الطفل قبل دخوله عالم المدرسة، بحيث يكون قادرًا على تكلم أكثر من لغة، وقادرًا على إتقان فنون متعددة، وأصبحت لديه القدرة على التواصل مع غيره عبر الوسائط الحديثة، فضلاً عن إتقانه الكتابة والقراءة وإن كان الأمر في الواقع يتطلب ترشيدًا لهذه العملية لتجنب المخاطر الممكنة على

صحة الأطفال، وعلى نموهم النفسي والعقلي والجسدي.

الرقمية ونشر الوعي

لقد أسهمت الرقمية في نشر الوعي الإنساني بشكل غير مسبوق، وذلك من خلال الانفتاح على عالم المعلومة والدخول من بابه الواسع. فقد صار بإمكان الجميع اليوم، التعرف على المستجدات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها، بدون تزييف أو تشويه، وأصبحت الحقيقة تصل إلى الجميع قبل أن تصل إلى وكالات الأنباء الإخبارية، وذلك بفضل الهواتف الذكية التي أصبحت الرفيق الدائم للإنسان. وهو ما يعزز الشفافية والديمقراطية كمبدأين أساسيين من مبادئ الرقمية.

لم تعد المدرسة والجريدة المكتوبة والكتب وحدها هي وسائل نشر المعلومات، بل أصبح بإمكان كل مَن لديه هاتف ذكيّ أن يصور أو ينشر.. وهو ما أسهم في نشر الوعي، بحيث أصبح بإمكان المرء أن يتعرف على ما يجري في العالم بضغطة زر؛ عبر استخدام محركات البحث ودخول مواقع التواصل الاجتماعي.

بل إن الارتقاء المعرفي والعلمي قد صار ممكنًا للجميع بفضل الرقمية، فأصبح بإمكان الجميع ولوج العوالم الإلكترونية، والاطلاع على الفيديوهات وغيرها، لمعرفة الواقع والحقائق، وللتعلم والمعرفة من خلال المحاضرات والدروس المبثوثة على اليوتيوب وغيره من المواقع؛ فصار بإمكان المرء أن يطور معارفه بمشاهدة ومتابعة الدروس عن بعد، وهو ما أسهم في نشر الوعي، وفي تنمية المعرفة لدى الجميع.

إن الرقمية، رغم بعض سلبياتها التي تسجل على مستوى تحولات القيم، والتي ترجع بالأساس إلى القصور في التوعية والترشيد بمخاطرها، إلا أنها في الواقع قد أتاحت فرصة التعلم للجميع والوعي والمعرفة، وهو ما يدعو إلى الإشعار بأهميتها، وترشيد التعامل معها، من خلال دروس توعوية يمكنها أن تكون عبر الرقمية ذاتها من خلال متخصصين، كما ينبغي أن تسهم الدولة في ذلك من أجل الأخذ بحسناتها وترك ما يمكن أن يسيء إلى المجتمع وإلى قيمه وأخلاقياته. ■

(*) مفتش تربوي للتعليم الثانوي / المغرب.

أ.د. بركات محمد مراد*

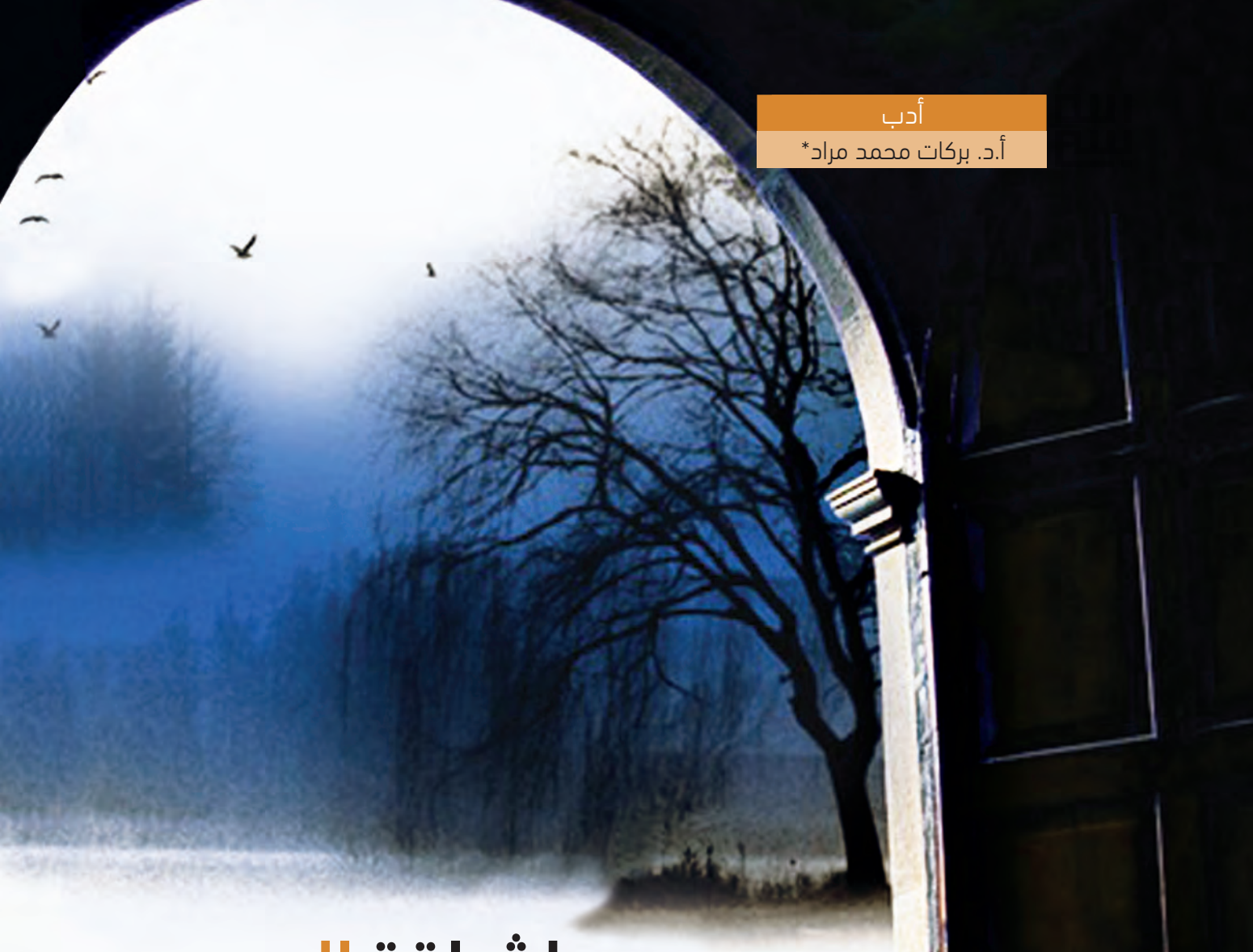

إشراقة الروح

ربما بسبب ذلك الوميض الخاطف انتقلتُ من الظلمة إلى النور؛ فقد كشف ذلك الشعاع لي جانبًا من أستار الغيب كان مخفيًّا عني. فقد شعرت في تلك الليلة، أن روحي قد سرت مع ذلك الشعاع إلى مناطق من الكون مغيّبة عني ولكنها محببة إليّ، وكأنها أوطان للروح محبوبة تحنّ دائمًا للعودة إليها بعد طول غياب.

وربما كانت القراءات الكثيرة في تلك الأوراق المضيئة لمؤلفات أبي حامد الغزالي، والقشيري والجنيد.. قد ساعدتْ نفسي على استكشاف ذلك العالم المجهول، الذي طالما حنت للوصول إليه وطرْق أبوابه. وكان من علامات ذلك، كثرة ترددي على المساجد وكثرة انغماسي في العبادة،

بل وتلذذي بإطالة الصلاة والتوجه إلى الله تعالى بكنه الهمة وخالص الرجاء.

إنني كنتُ في مفترق طرق الحياة، دفعتني تلك اللحظات الروحية السعيدة، وتلك اللوائح الإشراقية العابرة في الصلوات، إلى أن أضع حدًّا لآثامي، وأقرر التوبة إلى الله تعالى من كل ذنوبي وخطاياي، منتهجًا سبيل الله، ومتخذًا الطريق إليه، متوسلاً إلى ذلك بأداء الفروض والعبادات، ومحاولاً التخلص من كثير من الرذائل والشهوات، مستعينًا في كل ذلك بكثير من الأوراد والتأمل والقراءات.

وليس سرًّا أن الإنسان يندمج -بحكم العادة- في كثير من الآثام والرذائل، والعديد من الشهوات والقبائح -خاصة في مرحلة الشباب- التي لا يسهل عليه التخلص منها أو تجنبها، ولكنني بدأت أتخلص منها شيئًا فشيئًا، وأعوّد الإرادة على أن تكبح جماح النفس، وتسيطر على تلك الغرائز التي تمكنت منها فصارت لتلك الشهوات جذور في النفس عميقة ومتشعبة، وأوتاد تمتد فيها على مسافات بعيدة. فكانت العناية الإلهية تمكنني -في كثير من الأحايين- من التغلب على تلك الشهوات، والسيطرة على تلك النزوات، ومن هنا كانت تتسرب إلى أعماق النفس -بين الحين والآخر- نسائم الرضى ونفحات السكينة، تغذي نبتة الإرادة الباثقة، وتروي مساحات في النفس كادت أن تجف وتموت، فتدب فيها ثانية الحياة؛ حياة الطهر والسكينة والغبطة والسرور.

وقد كانت هناك شهوة عظيمة تمثل في غابات النفس وأدغالها شجرة عتيدة، امتدت جذورها إلى أعمق أعماق النفس، فصار اقتلاعها من جذورها أمرًا بالغ الصعوبة؛ فأخذت أحتال عليها بتقليم فروعها والضرب على جذعها، وتقليل الغذاء والماء الواصل إلى أصلها، علّها تذبل أو تهزل، حتى يمكنني التخلص منها ولو بعد حين.

أما هذه الشهوة العظيمة فقد كانت النظر إلى النساء، تلك الشهوة التي استبدت بي وأخذت عليّ أقطاري، وهي تستبد بكثير من البشر، وغالبًا هم لا يعون ذلك إلا إذا انتهجوا طريق التطهير؛ طريق رياضة الروح بتصفية النفس وتهذيب السلوك.. هنا تنكشف لهم النفس عن

شعرت في تلك الليلة، أن روحي قد سرت مع ذلك الشعاع إلى مناطق من الكون مغيّبة عني ولكنها محببة إليّ، وكأنها أوطان للروح محبوبة تحنّ دائمًا للعودة إليها بعد طول غياب.

خبائثها، وتبين لهم عن سوءاتها، ولا يدرك ذلك إلا من رحم ربي. ويبدو أن هذه الشهوة الخفية، صارت تسلية يومية لي، وغذاء ترضعه النفس دون كلل أو ملل، بل إذا مُنعت منه تشعر بالحاجة والألم، ويصير فطامها هنا صعبًا والحؤول دون مطلوبها شاقًّا ومجهدًا، على الرغم من أنها سهم من سهام إبليس تطلقه النفس من تلافيف جعبتها الخبيثة. بل لقد اكتشفت أن تلك الشهوة كانت تمثل زادًا يوميًّا وتسلية حياتية تزداد متعتها في الأعياد، حيث يلهو المرء مع أصدقائه وخلاّنه في الحدائق والمتنزهات.

ومن هنا، حينما أتى عليّ العيد بعد تلك التوبة النصوح، كم شعرت من الألم حين حنّت النفس إلى ما تعوّدت عليه، وكانت في أمثال هذه المناسبات تشتاق إليه، ولكنني في ذلك العيد، وقفت لها بالمرصاد، بعد أن وضعت كنانة الشيطان جانبًا، وجندت الإرادة لمقاومتها، وعدم الرضوخ إلى مطالبها الدنيئة.. ولكنها كانت ترسل إلى تلافيف العقل أبخرة ودخانًا أسود، وخواطر سوء، وتتساءل كيف ستسعد اليوم؟ وما مصدر تسليتك؟ لقد كنتَ تتسلّى بالنظر إلى تلك المفاتن، وتتغذى بالتأمل فيها وترتوي.. لقد كنتَ تنظر إلى كثير من الأنواع والأصناف، وتقارن في سعادة بالغة بين البيضاء والسمراء، وتحقق لك تلك النظرات لذات ولذات.. على الرغم من أنها في الأيام الأخيرة، شابها الإحساس بالإثم، وألقت عليها التأملات الروحية ظلال من الخزي والعار.

ولكن الروح في ذلك اليوم، انطلقت لا تلوي على شيء، مصممة على تحقيق الإرادة الخيّرة ووضع التوبة موضع التنفيذ؛ فأغلقت تلك الشقوق العفنة التي كانت تسترسل منها النفس بخواطرها، وأرسلت على تلك الخواطر شواظ من نار الشوق إلى الملأ الأعلى،

hiragate.com

والارتفاع إلى المقامات الأسمى، مستنجدة في أثناء ذلك بالسماء، ومستعينة بقوي العالم العلوي.

وفي هذه الأثناء كنت قد اقتربت من جسر قصر النيل، حيث تناثر البشر حوله في جماعات وثلل معظمها من الشباب اللاهي، الآخذين في اللعب واللهو، والمستمتعين بنسمات النيل ودغدغة الرياح.. وكانت الشمس على الرغم من ارتفاعها في الأفق، حانية في حرارتها، ترسل دفئًا يرغب فيه الجميع في نهاية شتاء بارد بدأ يغزوه الربيع.

وحين وقفت بجوار الجسر أنظر من عَلٍ على جُموع البشر الممتد حتى الأفق، مرسلاً نظراتي متأملاً الكون حولي في محاولة لتجاوز جزئيات المشهد، والارتفاع إلى أفق الرؤية الشاملة، وفي لحظة تند عن الزمان، شعرت بأن إرادتي تتحرر كلية، وترتفع بالروح عالية، ممتطية صهوة همتي، محاولة الوصول إلى الملأ الأعلى، متجاوزة العالم المحسوس.. وعلى الرغم من أن عيّني كانتا مفتوحتين تمامًا، وعقلي في كامل وعيه، إلا أن شعورًا طاغيًا بالسعادة أخذ يغمر النفس ويفيض عليها، ثم تتوالى في لمحات خاطفة فيوضات من الرحمة والسكينة إلى سراديب النفس، فتملأها في الوقت الذي تتفتح فيه في النفس عيونًا وينابيع من الغبطة والسرور الروحي الجارف، تشبه تلك الينابيع من الماء التي تتفجر في صحراء جدباء فتغمر كل ما حولها.. وبدأت هذه اللوائح واللمعات التي انعكست على النفس من أفق السماء، تزداد وتتوالى حتى تحولت إلى فيوضات منهمرة تغمر النفس وتغذوها؛ فالتقت أنوار النفس مع أنوار السماء، مما أشعل في النفس طاقة من الضياء والحبور لا قبل لي بوصفهما، ولا قدرة لغوية لي على شرحهما وتحليلهما، على الرغم من أن عقلي -وأنا دارس المنطق والفلسفة- في كل هذه المشاهد لم يغب ولم يحتجب، بل مكث مندهشًا ومتربصًا يرقب ما يحدث لي، ويسجل كل شيء بدقة بالغة، ويتعجب معي من سرعة التحولات، ويندهش من كثرة الفيوضات التي لم أكن أملك وقفها، بل شعرت بلذة بالغة القوة في ورودها.. لكن اللذة أخذت تتضاعف، والواردات من الأنوار أخذت تتوالى، فأخذت ألتفت حولي خوفًا من أن يُشاهد أحد ما يحدث لي، ولكن الناس كانوا في لهوهم مستغرقين ولم يلتفت إليّ أحد.

ثم اشتدت في لحظة تلك الواردات الإلهية، حتى لم تستطع النفس تحمّلها، وحين تطلعت إلى السماء وشاهدت الشمس حينئذ تعتلي بقوة قبتها، فاضت النفس بما يتوارد عليها من الأنوار، وتسامت الروح كطائر عملاق يمتطي صهوة السماء حتى خيل إليّ أنها قد سدت الأفق، واقتربت من السُدم والمجرات، وأصبحت الشمس طوع أمري وعند نهاية أطراف أصابعي، لو أمرتها أن تذهب لاستجابت دون تردد أو توان.. كما شعرت حينئذ بتجسد الإرادة وتحققها، حتى كأنها اتحدت بالإرادة الكونية الكلية، مما أربك العقل وزلزل معاييره بعد أن توالت عليه شحنات الأنوار الصاعقة، وكادت تحرقه لوائح التجليات البادية.

في هذه اللحظات، أدرك العقل الناقد أن الروح قد ثملت بما فيه الكفاية، وأن ما صُبّ فوقها من شَهْد الوصال بالملأ الأعلى، قد زاد على حدها وقوتها، وأنه لا قبل لها بما قد يرد من واردات إلهية قد تدفعها إلى الجنون أو الهلاك.. فقد شعرت في هذه الأثناء وعند اقترابي من الجسر، أنني يجب عليّ القفز في الماء حتى أهرب مما يغمرني من الأنوار والضياء، التي وصلت إلى حد الإحراق، مُصاحبة بلذة عاتية وصلت إلى حد الألم، فأصبحت لا أستطيع تحمل تلك الفيوضات، ولا قِبَل لي على الوقوف طويلاً في منازل تلك الواردات، بعد أن صرت معلقًا بين الأرض والسماء، واتصلت في روحي -أنا الفاني- كل عوامل الخلود والبقاء.

ثم أدركتني العناية الإلهية، فإذا بقدميّ تحملاني بعيدًا عن النهر والجسر، فأخذت أهرول بعيدًا بعيدًا، هاربًا من أجمل المشاهدات، ومستنقذًا النفس والجسم من أعظم الفتوحات، وأنا أردد أشعار أبي يزيد البسطامي:

سقاني شربة أحيا فؤادي

بكأس الحب من بحر الوداد

فلولا الله يحفظ عارفيه

لهام العارفون بكل وادي. ■

(*) قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

hiragate.com

د. أنس بنيونس*

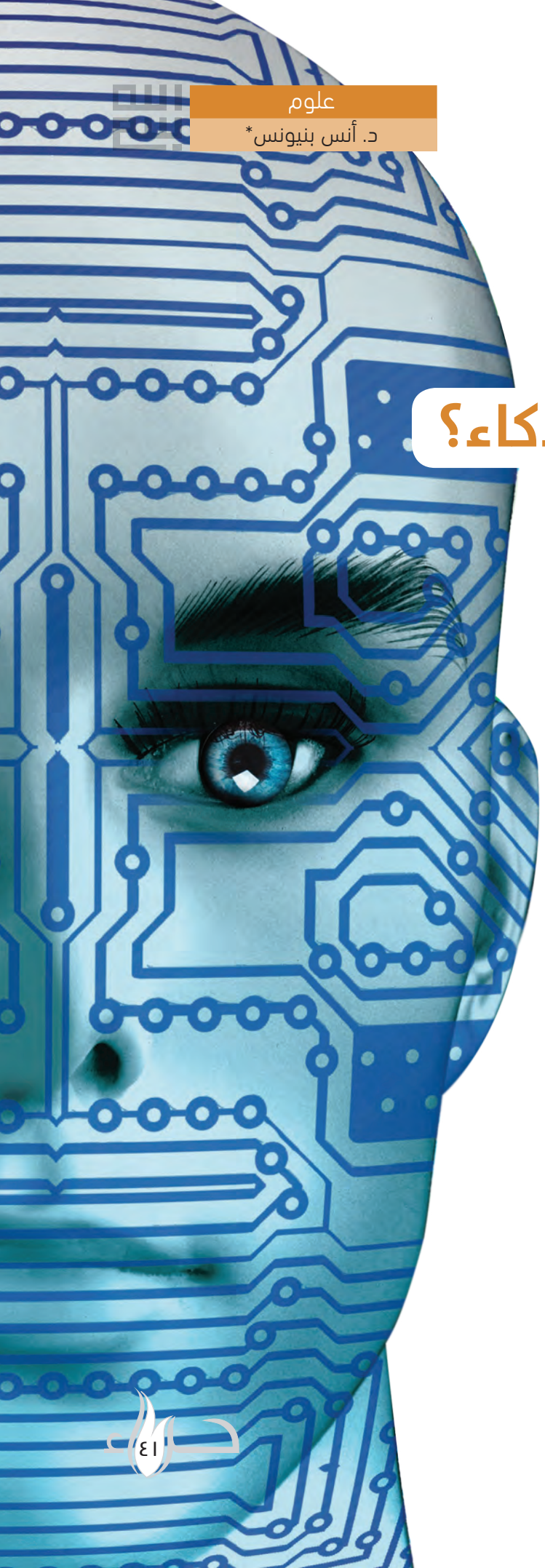

كيف يزداد الإنسان ذكاء؟

مع توالي سرعة الاختراعات في شتى المجالات، أصبح المتتبعون لهذا الشأن يطرحون الكثير من الأسئلة، أسئلة فرضتها تلك الاختراعات المدهشة والغريبة عن عقولنا. ولعل أهم تلك الأسئلة المطروحة اليوم هي: هل سنزداد ذكاء؟ رغم أن الموضوع يبدو نوعًا من التنبؤ، إلا أن السنوات المقبلة كفيلة بأن تقدم لنا الجواب لهذا السؤال الموضوع ولغيره، وقد تتجاوزه حسب طبيعة ما تم التوصل إليه من اختراعات، فهل سنزداد ذكاء؟ هو ما سيجيبنا عنه الباحث الأمريكي في مجال الذكاء الاصطناعي وعلم النفس المعرفي "روجر شانك".

افتتح "شانك" هذا الموضوع المهم بمجموعة من الأسئلة من قبيل: هل الذكاء مطلق؟ هل يزداد ذكاء الجنس البشري بمرور الوقت؟ ويرى أن هذا يتوقف بكل تأكيد على ما نعنيه بكلمة ذكاء. فقد اعتبر أنه لا شك أن معارفنا تزداد أو تبدو كذلك على الأقل. وعلى الرغم من توفر إمكانية وصول الطفل العادي إلى ثروة من المعلومات تزيد بكثير عن تلك التي كانت متوفرة للأطفال منذ خمسين سنة، إلا أن هناك أشخاصًا يزعمون أن أطفالنا أقلّ تعليمًا مما كان عليه الحال منذ خمسين سنة، وأن مدارس اليوم خيّبت آمالنا.

هذه الأسئلة التي تدور حول معنى الذكاء في نظر "شانك"، لا تحتل مركزًا مهمًّا في دائرة البحث العلمي، ولا حتى في دائرة الحوار العام، ولا نزال نعيش حياتنا وفقًا لأفكارنا المفهومة ضمنيًّا عن الذكاء والتعليم، التي ستواجه تحديًا خطيرًا خلال الخمسين سنة المقبلة. يقول "شانك": "بعد خمسين سنة من الآن، سيصبح من السهل جدًّا الحصول

على المعلومات، بحيث يستطيع المرء أن يطرح سؤاله بصوت مرتفع، ليسمع ردًّا فوريًّا يأتي إليه من الجدران المدعمة بقدر كبير من التكنولوجيا. فمعرفة ما كتبه "فرويد" حول الـ"أنا الأعلى" لن يعني شيئًا كثيرًا عندما تستطيع الالتفات إلى أقرب جهاز، وسؤاله عما قاله "فرويد" في مسألة ما، لتسمع "فرويد" (أو شخص يشبهه كثيرًا في شكله وصورته) يجيبك ويذكر لك خمسة من قادة الفكر المعارضين من مختلف العصور على استعداد لعرض أفكار بديلة إذا كنت تريد الاستماع إليها ومناقشتها معهم".

وهنا يتساءل "شانك"؛ "هل الذكاء يعني مجرد القدرة على أن تكون مطلعًا على أجوبة أسئلتك، أم القدرة على معرفة الأسئلة التي ينبغي طرحها؟ ففي رأيه كلما قلّت قيمة الأجوبة زادت قيمة الأسئلة، يقول عن ذلك: "لقد عشنا لفترة طويلة جدًّا في مجتمع قائم على الإجابات، وعلامات ذلك في كل مكان؛ في برامج التلفزيون التي يشاهدها الناس مثل برنامج "من سيربح المليون؟"، وفي الألعاب التي يمارسونها مثل "تريفال برسيوت"، وأهم من كل ذلك في المدرسة.. إذن، تحتل الإجابات أهمية عظمى، فالاختبارات هي الشغل الشاغل لمدارسنا، بحيث صارت المدرسة نظامًا لتعلم الإجابات لا لتعلم حب الاستطلاع والتقصي".

وهنا يرى "شانك" أن التكنولوجيا الجديدة ستعمل على تغيير ذلك كله؛ فعندما ظهرت حاسبة الجيب، تساءل الناس عمّا إذا كان من الممكن استخدامها في اختبارات الرياضيات، لأنها ستصبح متوافرة دومًا ونتيجة لذلك، بدأت اختبارات الرياضيات تركز على الموضوعات الواقعية المهمة بدلاً من القسمة المطولة. سيُحدث استخدام الذكاء الصناعي في الأجهزة اليومية التأثير نفسه؛ فمع انتشار الآلات وقدرتها على الإجابة عن الأسئلة التي تدور حول كل ما يهمنا، ستتراجع قيمة الشخص باعتبارها بنكًا للمعلومات. إن المفهوم القديم للمدرسة -التي كانت تركز على الفكرة القائلة بأن الشخص الأكثر علمًا في المدينة، لديه معلومات يمكنه تلقينها، وعلى البقية الجلوس واستظهار هذه المعلومات- سيفسح الطريق لمفاهيم جديدة لاكتساب المعرفة.. لن يُنظر إلى المعرفة بعد اليوم كسلعة تمتلك، فأي شيء يُقتنى بسهولة تقل قيمته في المجتمع، والشيء

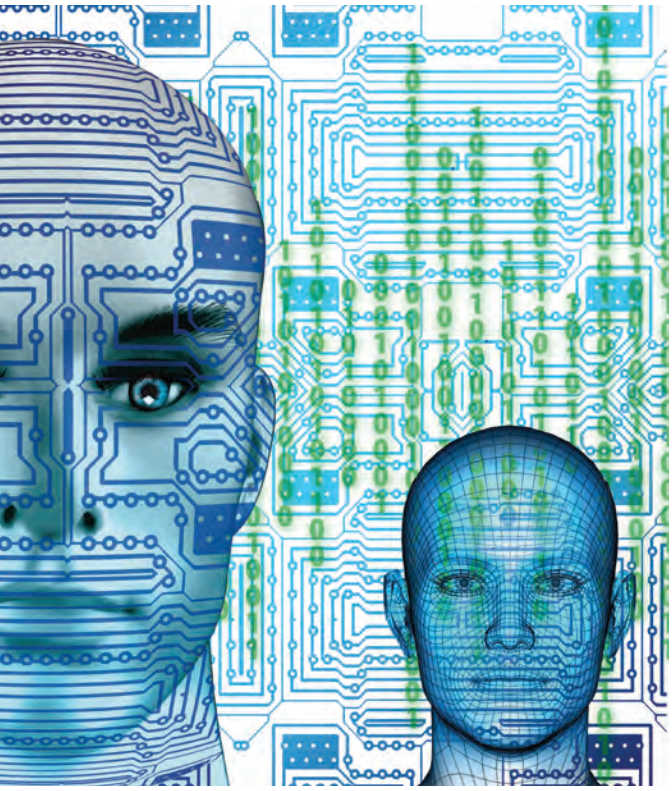

نفسه سينطبق على المعرفة. أما ما سيحظى بقيمة كبيرة فهو الأسئلة الجيدة، وسنسمع الناس يقولون: هذا أقصى ما يمكن للكمبيوتر أن يأخذكم إليه.

يعطي "شانك" مثالاً بالقول تخيل ما يلي: "أنت في غرفة المعيشة في بيتك تتحدث مع شريك حياتك، فتثور مسألة بينكما فتلتفت إلى الجدار طلبًا للإجابة، متسائلاً "من كان على صواب"؟ فيرد الجدار بقوله إن لديه مجموعة من الأشخاص الافتراضيين يمكنهم الاشتراك في الحوار، فتختار بعض الشخصيات التي سمعت عنها أو تحاورت معها من قبل، وهنا تبدأ مناقشة مفعمة بالحيوية.. وأخيرًا يصل الكمبيوتر إلى أقصى ما يعرفه في هذا الموضوع، ولا تعود الجدران تعرف أي شيء ذات صلة به، فتتعجب "هذا إذن سؤال مثير". يقول "شانك" معلقًا: "إن معرفتك سؤالاً جيدًا، يجعلك جاهزًا للدخول في مناقشة مع بشر أحياء آخرين لديهم اهتمام بأسئلة مشابهة، تقول هذا السؤال للجدران، وفجأة يحضر الأشخاص المهتمون بالأسئلة ذاتها ممن استنفدوا قدرات البرامج على النحو ذاته، إلى غرفة معيشتك (افتراضيًّا). في عالم تتوافر فيه هذه الإمكانات، ماذا يعني أن تكون متعلمًا؟ ماذا يعني أن تكون ذكيًّا؟".

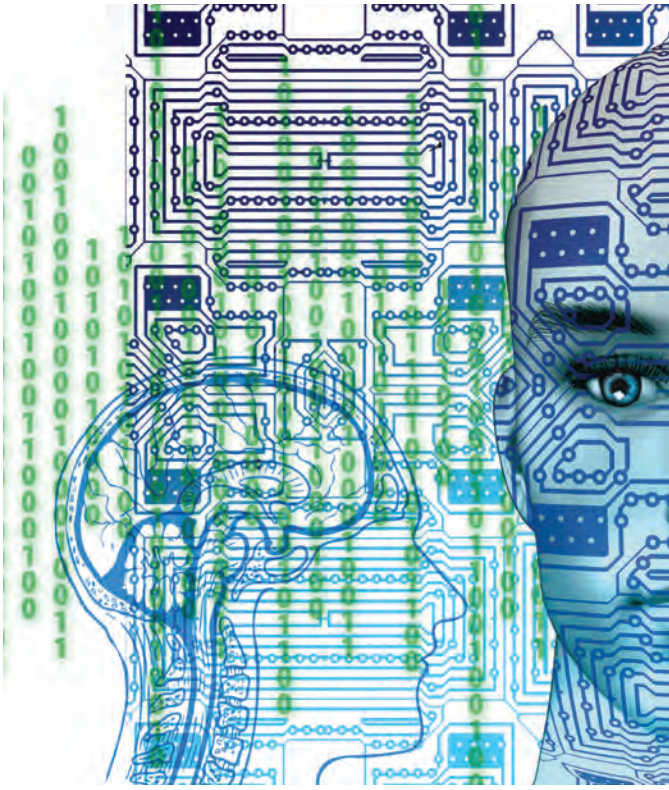

وللتفكير في الجزء المتعلق بالتعليم من السؤال أعلاه، يرى "شانك" أنه علينا أن نتساءل عما ستكون عليه حياة الأطفال في ذلك العالَم. بعد خمسين سنة سيكون الإقبال على المدارس كما نعرفه الآن قد تقلص.. لماذا نذهب إلى المدرسة لنتلقى المعلومات بينما الخبرات الافتراضية متوفرة بسهولة، بالإضافة إلى توفر أفضل المدرسين افتراضيًّا في أي لحظة؟ إن التعليم -حتى من سن الثانية- سيبقى استكشاف العوالم محل الاهتمام مع توفر مرشدين أذكياء يجيبون على أسئلتك، ويطرحون عليك مزيدًا من الأسئلة الجديدة، وسينفتح عالَم بعد عالم أمام الطفل المحب للاستطلاع. سيكون شأن التعليم في مثل هذا المجتمع ماهية العوالم الافتراضية -ولاحقًا العوالم الحقيقية- التي دخلتها وما تعلمت فعله في تلك العوالم.

ويرى "شانك" أن المدارس الافتراضية التي ستنشأ لتحل محل المؤسسات الحالية، ستجذب الطلبة بسبب ما ستمنحه لهم من خبرات أكثر منه، بسبب ما ستمنحه لهم من شهادات. ونظرًا لتوفر هذه الخبرات التي يتلقاها الشخص عندما يقرر أن يتعلم، فإن معظم الطلبة سيلتحقون بالكليات قبل بلوغ الثامنة عشرة بفترة طويلة. كما سيشجعنا النجاح في الخبرات الافتراضية المختلفة على التعامل مع الجديد منها كما هو الحال في الألعاب الإلكترونية اليوم، وستسهم المؤسسات التعليمية بما تستطيع عمله بشارات الاستحقاق الافتراضية التي حصلت عليها أكثر من اهتمامها بالمقررات التي درّستها. يعلق هنا "شانك" بالقول: "سيوجِد كل مجال خبرات في تخصصه. فبدلا من تقديم "هارفارد" أو "كولومبيا" دورات دراسية في الفيزياء، سيعمل الفيزيائيون من جميع أنحاء العالم مع مصممي عالم التعليم الافتراضي الذين يصنعون برنامجًا لإيجاد خبرات في الفيزياء على أن يتم توفيرها للجميع. ستتحول الفكرة القديمة القائلة بأن الأكثر ذكاء هم من حصلوا على أعلى الدرجات من مدارس اختبرتهم، لترى مدى إجادتهم لما تعلموه من دروس، إلى فكرة مفادها أن أذكى الطلاب هم من يطرحون أسئلة على البرنامج يتعين إرسالها إلى البشر بحثًا عن إجابات لها، وسيعني الذكاء القدرة على بلوغ خبرة تعليمية".

إن ما يمكننا فعله حسب "شانك" ليس ما نعرفه، بل ما سيكون ذا أهمية في نظام تعليمي قام على بيئات الأداء الواقعي. ستدور القضايا الفكرية المهمة حول أسئلة ستنشأ من طبيعة تفاعلات الطلاب في العالم التعليمي الافتراضي، يقول "شانك" "عندما تطالب البيئات التعليمية بأسئلة وتسأل عن كيفية الحصول عليها، وتطلب معرفة الخبرات التي تولدت عنها تلك الأسئلة، عندها سيكون التغيير العميق الذي أحدثه الكمبيوتر قد تحقق، سنصبح أكثر ذكاءً، بل وأكثر ذكاءً بكثير، بمعنى أننا لن نخشى أي خبرات جديدة. ستكون عقولنا متعلمة بطريقة مختلفة، ولن يسيطر على عالمنا الفكري، الإنسانيون ولا العلماء، بل التجريبيون الذين كانوا هناك وأصبح لديهم حب استطلاع نتيجة لذلك".

يظهر إذن من خلال ما قدمه لنا "روجر شانك"، أن تطور ذكاء الجنس البشري أمر مفروغ منه، وذلك بفضل ما ستقدمه الاختراعات التكنولوجية من خدمات ومعلومات كانت إلى وقت قريب حكرًا على طبقة معينة، ومن هنا فالتكنولوجيا حطمت الحواجز، سواء في التواصل، أو في مجال البحث العلمي وتحصيل المعرفة. ■

(*) جامعة محمد الخامس، الرباط / المغرب.

د. خالد راتب*

التواكل الحضاري

لا تستقيم الحياة إلا بالعمران بمنهج رشيد يجمع في طياته منافع الدنيا والآخرة. والسعي في تحقيق هذا العمران يعدّ عبادة يؤجر عليها الإنسان، حتى الذي لا يؤمن يطعم ويكافأ على إسهاماته العمرانية في الدنيا. ولقد طبّق المسلمون الأوائل المنهج العمراني الذي يجمع بين حسنة الدنيا والآخرة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١)؛ أي طلب منكم عمارتها.

إن خريطة العمران البشري كانت ممتدة عبر الأجيال عندما فهمت هذه الأجيال لب الإسلام وقواعده، وعلمت حقيقة التوكل على الله، وأن المتوكل على الله ليس هذا الإنسان الذي يعكف على لون واحد من العبادة، وتتورم قدماه من القيام، ويظهر عليه أثر الصوم والتبتل تاركًا غيره كادًّا كادحًا يبني ويشيد ويعمر وهو قابع في محرابه يظن أنه بلغ منزلة العابدين!

إن المسيرة الحضارية كي تستمر لا بد من تضافر الجهود، وتعاون الجميع في شتى مجالات الحياة؛ لأن الإفادة الحضارية المتعاونة الرشيدة، تجلب الخير للكون كله وتقيه ويلات التخلف؛ من أجل ذلك كان المبدأ الأساسي لبناء الحضارات، التعارف والتعاون على ما فيه الخير والنفع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(الحجرات:١٣)، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(المائدة:٢)؛ فالتعارف والتعاون بجانب التعمير أساس تَقدُّم الأمم، ولن تبلغ الأمة المجد إذا كان هناك قطيعة حضارية أو تواكل حضاري، ذلك التواكل الذي يتغنى أصحابه بأمجاد الأجيال السابقة وهم في سبات، كل واحد منهم يشاهد الحضارات تبنى من حوله، ويرى النهوض العلمي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي وهو يرفل في ظلمات التخلف، يستورد ولا يصدِّر، يتأثر ولا يؤثر، موقعه -دائمًا- في الجملة الفعلية التعمرية، مفعول به لا فاعل!

إن مداومة السعي تقتضي حتمية الوصول، هذه قاعدة من قواعد التوكل على الله طبّقت في كل القوانين الكونية والإنسانية، بل وفي قانون الحيوانات والطير، حيث عُلِم الطير أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وإنما الذهب يخرج من بطون الأرض وبالمشي في مناكبها، قال ﷺ: "لو أنكم توكَّلون على الله حق توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا وتَروح بطانًا" (رواه الترمذي)؛ تغدو خماصا؛ السعي في الوصول إلى الهدف، وتروح بطانًا؛ الوصول إلى الهدف.

فمتى يتعلم الدرسَ المتواكلون حضاريًّا من الطير الذي رفض أن يتواكل على غيره، وسعى بنفسه حتى وصل لهدفه؟ فكيف نريد أن نصبح أفضل البلاد،

التعارف والتعاون بجانب التعمير أساس تَقدُّم الأمم، ولن تبلغ الأمة المجد إذا كان هناك قطيعة حضارية أو تواكل حضاري، ذلك التواكل الذي يتغنى أصحابه بأمجاد الأجيال السابقة وهم في سبات.

وحضارتنا أعرق الحضارات ونحن في سبات عميق نغطّ في النوم غطًّا؟!

إن التواكل الحضاري جريمة تظهر آثارها في واقعنا؛ لأن الأمة المتواكلة على حضارات الغير تظل متطفلة، بل من الممكن أن يصيبها الرق الاحتلالي، فتفكر بعقل محتلها وتتحرك بأوامره، فتصبح أمة مسلوبة الإرادة طاقتها معطلة.. كما أن التواكل الحضاري يؤدي إلى العنف ويجعل الإنسان فريسة لشهواته ورغباته؛ لأن مساحة الفراغ الزمني للمتواكلين ستملأ بما يضر، ومن هنا تسعى النفس المتواكلة في تدمير نفسها وتدمير أمتها، وذلك لأنها ستقع في شراك شياطين الفكر المنحرف والمتطرف، وستقع -أيضًا- في مصيدة الفكر المتسيب الذي يطلق لفكره العنان فيما لا يقدر عليه، ليصل في المحطة الأخيرة إلى الإلحاد.. كل ذلك لأن المساحة الزمانية والمكانية والفراغ الحضاري، لم يملأ بما ينفع ويخدم الإنسانية والكون من حولنا، لم يملأ بالعلم والعمل والقيم والأخلاق وتحقيق رسالة الخيرية التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، أخرجت السكينة والطمأنينة، أخرجت الأمة الخيرية صورة طبق الأصل من الإسلام الذي فيه السلم والسلام، فيه سلامة القلب وطهارته، وسلامة اللسان وعفته، وسلامة الجوارح من العدوان والسباب والرمي بالكفر دون برهان.

إن السعي الحضاري يجعل الأمة تعيش حياة سوية سعيدة، ولن يكون ذلك إلا عن طريق الفهم الصحيح والعمل الدؤوب والكفاح والإخلاص في العطاء للبشرية كلها، لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى. ■

(*) عضو في مجمع البحوث الإسلامية / مصر.

hiragate.com

عبد الحميد الراوي*

الأجهزة الإعلامية
وبناء الشخصية المتكاملة

يؤثر مضمون تراث الأمة من فكر وعقيدة وعادات وتقاليد وقيم ونماذج وسلوك.. في تشكيل نمط ومنهج الفكر والوجدان خاصة بين الأطفال والشباب، وذلك من خلال وحداتها الاجتماعية، بدءًا من الأسرة ومرورًا بالتربية المدرسية والمؤسسات الثقافية المتنوعة في التأليف والترجمة والنشر والأعمال الفنية والأدبية والمسرحية والسينمائية، ثم المؤسسات الدينية الرسمية والأهلية في مجالات الوعظ والدعوة والإرشاد وكافة ممارسات الشعائر الدينية في دور العبادة.. وأخيرًا المؤسسات الإعلامية في ساحات الصحافة والإذاعة والتلفزيون الذي يهيمن الآن -وبشكل رئيسي- في بث المعلومات والأنباء والأفكار، وأعمال الترويح التي تتفوق برامجها على غيرها من برامج أخرى -بسبب جاذبيتها- أكثر من البرامج الثقافية التي تخاطب العقول.

الأجهزة الإعلامية وتشكيل الفكر الإنساني

يتأثر تشكيل الفكر الوجداني بمدي قوة المؤثرات الثقافية والإعلامية على الشخصية، خاصة بين الأطفال والشباب، وقد يخفت أثر المؤسسات التعليمية والدينية في حالة انتشار هيمنة الأجهزة الإعلامية الجماهيرية، خاصة لو كانت مناهج التعليم والبرامج الدينية لم تتحرر من أفكار الجمود والتقليدية في الوقت الذي يتغير فيه العالم بشكل لم يسبق له مثيل. ونظرًا لوهن تأثير الوحدات الاجتماعية

الرئيسية كالأسرة والتربية المدرسية والمؤسسات الثقافية والدينية، فإن تشكيل الفكر والوجدان أصبح في مهب التغييرات الثقافية، خاصة ما تحرر منها وانحاز نحو الثقافة الغربية العلمانية، ورد فعل ذلك من انتشار فكر تقليدي محافظ، وصل إلى درجة الجمود والبعد عن الوسطية.

ولا تقلّ احتياجات الفكر والوجدان أهمية عن احتياجات البدن والصحة والغذاء، وقد يترتب على عدم الوفاء بأي من هذه الاحتياجات، البحث عن نظم ومؤسسات بديلة تقوم بإشباعها وتصبح مصدرًا للثقافة والمعلومات التي يثق بها الشباب، غير قيمة.

أبعاد الأزمة التربوية

نحن إزاء أزمة تربوية وثقافية تنعكس غالبًا على شخصية الأطفال والشباب، مما قد يؤدي إلى إهدار الإمكانات والطاقات المختزنة في صدورهم وعقولهم وأنشطتهم، ومن ثم كان لا بد من ترشيد الأفكار والأفعال والأقوال في إطار الوحدات العليا للمجتمع، وبعبارة أخرى تحقيق التنمية البشرية التي لا تستطيع وحدة اجتماعية بذاتها القيام بها، كالأسرة أو المدرسة أو الجهاز الإعلامي، بل لا بد من تناسق الجهود على أساس من وحدة الهدف والمعرفة العلمية بأبعاد هذه الأزمة، حيث لا يجوز أن يهدم جهاز إعلامي -مثلاً- ما يبنيه جهاز ثقافي آخر في مجال القيم التي تعارف على احترامها المجتمع، والتزم بها لضبط سلوك الأفراد وإيقاع الحياة.

وينبغي بناء على ذلك، أن تتفق هذه الأجهزة الاجتماعية والإعلامية والثقافية والدينية على كلمة سواء تبغي المصلحة المشتركة للجميع دون تحيز ولا تمييز، وبعبارة أخرى، الاتفاق على الحد الأدنى لتدعيم مقومات الشخصية المتكاملة للأطفال والشباب في صور أهداف مشتركة، غير مختلف عليها مهما تباينت المشارب والأفكار، وأن تحتكم كل أمة من الأمم -مهما بلغت درجة حضارتها- إلى فكرة رئيسية أو مجموعة من الأفكار المناسبة والقيم المبتغاة التي تقاس بها درجة التزام الأفراد حكامًا ومحكومين، فإن درجة الالتزام تشتد عندما يكون الدين محورًا للعقيدة والأفكار أو الأيديولوجية بتعبير آخر، سواء كانت هذه الأيديولوجية معلنة أو مضمرة في

الخطاب الموجه للتوعية الحضارية، عليه أن يضع في الاعتبار فئات الأعمار كلها، وأن يراعي تباين المستويات التعليمية والثقافية، وأن تكون هذه التوعية صادرة من اتجاهين، بحيث تتاح الفرص للحوار وتبادل الأفكار، ويتطلب ذلك ضرورة التأكيد على حرية الرأي.

صدور الناس.. وإذا ظهر تيار فكري مناقض -لم يشتد عضده- فلا سبيل للمجتمع إلا أن يقاومه أو يعارضه، ويدلنا على ذلك الاستقراء التاريخي لمجموع الحضارات التي خاضت الإنسانية تجاربها. فالبرغم من ارتقاء الدين المصري القديم إلى فكرة التوحيد في عهد "أخناتون"، ما لبث أن أجهضت التجربة حتى صحح الله ﷻ مسار التاريخ الإنساني بالديانات السماوية إزاء حقيقة الحضارة وغيرها من حضارات الديانات الوثنية.

علاج الاستغراق المادي

بالرغم مما تشتهر به الحضارة الغربية الحديثة بالاستغراق في المادية والعلمانية، إلا أن مظلة الفكر الديني (المسيحي) ظلت تنشر ظلالها على ربوع كثيرة من المجتمعات الغربية؛ ونذكر في هذا الصدد، ما أفاد به المصلحون الاجتماعيون بالولايات المتحدة الأمريكية إبان القرن التاسع عشر، عن أهمية تشكيل عقلية الأطفال على أسس المبادئ المسيحية والحرية أو الليبرالية، معتمدين على ذلك أيضًا -تحت دعوة المهاجرين إليها- في تنشئة أبنائهم على هذه الأسس، حتى يتحقق الانسجام بين مشارب المواطنين الأمريكيين والوافدين، وحتى يؤكدوا على عدم الاعتماد على الأسرة فقط، بل يجب التركيز على دور المدارس وأماكن العبادة والعمل.

ولم تقتصر هذه الدعوة على المصلحين الاجتماعيين في القرن التاسع عشر فقط، بل هناك من علماء النفس من دعم هذه الفكرة وعلى رأسهم رائد علم النفس الارتقائي "ج. ستانلي" (G. Stanley) (١٩٠٣)، الذي أفاد بأهمية الدور الرئيسي والمركزي للدين المسيحي في تشكيل الهوية، أو الشخصية الوطنية الأمريكية، وأن

hiragate.com

ذلك لا يتأتى إلا بالتربية الحضارية بمعناها الواسع، والتي تعتمد في عصرنا الراهن على المنظمات غير الحكومية، أو الأهلية في مجالات التعليم والثقافة والتربية الدينية والحركة الكشفية، وغير ذلك مما يسهم في عملية التنشئة الحضارية. ولن تقتصر هذه التربية الحضارية على الطفولة والشباب فقط، بل تمتد إلى فئات الأعمار الأخرى، حيث يمكن تغيير الاتجاهات الفكرية للكبار -رغم صعوبة ذلك- بشكل عام. فالخطاب الموجه للتوعية الحضارية، عليه أن يضع في الاعتبار فئات الأعمار كلها، وأن يراعي تباين المستويات التعليمية والثقافية، وألا تكون مثل هذه التوعية صادرة من اتجاه واحد نحو الملتقي، بل يجب أن تكون ذات اتجاهين، بحيث تتاح الفرص للحوار وتبادل الأفكار وردود الأفعال، ويتطلب ذلك ضرورة التأكيد على حرية الرأي. ويمكن أن يتحقق ذلك في ساحة العمل الثقافي والإعلامي في الصحافة والإذاعة والتلفزيون، من خلال التمكين من إبداء الرأي الحر في الصحف، وتبادل الحوار والنقد البناء في الإذاعة والتلفزيون، وليس ذلك على سبيل الانتقاء المتحيز للمحاورين، بل الانتقاء الموضوعي المعتمد على الكفاءة والقدرة في حالة الحوار المتخصص، ومشاركة مختلف الاتجاهات الفكرية في حالة الحوار الجماهيري.

أصول التخطيط التربوي

من الأهمية بمكان، ألا يقوم المتخصصون في أحد ميادين التربية والثقافة والإعلام والدين، بالتخطيط الثقافي والإعلامي والتربوي والديني، مستقلين عن نظرائهم في هذه المجالات، كما أن هناك آخرين في مجالات الأمن والقانون وميادين أخرى في العلوم الإنسانية يجب مشاركتهم، وأخذ آرائهم موضع الاعتبار؛ إذ الوعي الديني والقانوني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والفني.. كل ذلك يتكامل في وعاء التنمية الحضارية، ومن ثم يجب فتح الأبواب للمشاركة الإيجابية بالفعل لا بالمشاهدة أو الاستماع فقط. ويمكن عند إعداد المخططات التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية والدينية، دعوة مَن يكوّن الفئات العمرية والتعليمية والدينية من جماهير المستفيدين، للمشاركة في هذا الإعداد، ولا يكون ذلك من خلال المجالس البرلمانية فقط، بل المجالس المحلية ومجالس الآباء والهيئات غير الحكومية للخدمات والعمل الاحتماعي والنقابات المهنية المختلفة.

المشاركة الشعبية وتصحيح المسار التربوي

إن أولى الاعتبارات في ذلك كله، ألاّ يحتكر شخص بعينه أو جماعة أو وزارة أو هيئة، حق التصور للإصلاح أو تصحيح المسار الاجتماعي أو الثقافي أو الاقتصادي.. فالشعب هو صاحب المصلحة الأولى، وهو الحريص على التمسك بالثوابت الحضارية، وهو صاحب الحق في تعديل المتغيرات الحضارية، ومن ثم فإن فُرصَ المشاركة الشعبية يجب أن تجد لها سبيلاً في تصور وإعداد الخطط الثقافية والإعلامية والتربوية والدينية، ويعني ذلك أن العمل الديمقراطي لا يقتصر فقط على العمل السياسي، بل يجب أن تسري روح الشورى والمشاركة في العمل الاجتماعي بمعناه الواسع والشامل، للخدمات والتنمية التربوية والثقافية والإعلامية والدينيه.

أما الأمر الثاني فهو أن تراعى الأهمية الإستراتيجية في اختيار المشروعات التربوية والثقافية والإعلامية والدينية، طبقًا لمبدأ الأولويات. فإلى جانب مكتبات الأطفال ومكتبات الأحياء والمسارح المحلية، يجب أن تكون مشروعات محو الأمية، ومكافحة التسرب الدراسي، وتقليص عمالة الأطفال، واستثمار وقت فراغ الشباب، لها السبق في رصد الميزانيات والاهتمام في البرامج الإعلامية وخاصة برامج التلفزيون، بل يمكن من خلال المنهج التكاملي أن تتواكب الجهود التربوية والاجتماعية والثقافية والإعلامية والدينية في أماكن دور العبادة، والمكتبات، وفصول محو الأمية.. ويستخدم في ذلك، ملحقات المساجد والمدارس والساحات الشعبية، وبعض الأندية الملائمة، ومكتبات الأطفال وقصور الثقافة .

إن مثل هذه الجهود المتكاملة يمكن أن تحقق -من خلال الاتصال والإعلام المباشر- نتائج أكثر عمقًا، مما تحققه وسائل الاتصال غير المباشر، كالإعلام الجماهيري رغم انتشاره وهيمنته وعمق نفوذه. ■

(*) كبير أئمة بوزارة الأوقاف المصرية / مصر.

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

هل يمكن العيش بدون الجبال؟

في بواكير مرحلة التعليم الثانوي ثم الجامعي، طَفَتْ في أذهان الكثير منا أسئلة مصيرية: كيف نشأ هذا الكون؟ هل من حكمة وتقدير في وجود مظاهر الحياة على ما هي عليها؟ هل نظرية "داروين" حقيقة علمية مؤكدة؟ ما العلاقة بين العلم ونظرياته وظواهره، وبين الدين ومعتقداته وثوابته؟ وهل بينهما توافق وانسجام أم تنافر وخصام؟ وكنا زملاء وأصدقاء متأثرين بمعلمين أفذاذ في العلوم والأحياء، نتناقش حول هذه الأمور وغيرها، وكان لنا زميل تخصص في علم "الجيولوجيا"، شغوف بطرح الأسئلة لإثارة ملكات

التفكر والتدبر، سأل يومًا: لماذا خُلقت الجبال؟ وهل يمكن العيش بدونها؟ أما كانت الأرض في انبساطها تصلح لحياة البشر دون تلكم التضاريس الجبلية كبيرة الحجم، شاهقة الارتفاع، شديدة الانحدار؟ ألا تترك انطباعات نفسية مشحونة بالخوف والرهبة؟ وكانت خلاصة مناقشاتنا في السطور التالية، لعل فيها فائدة لأصدقائنا المحدثين.

تغطي الجبال نحو ٢٢٪ من يابسة الأرض، وهي ليست تلك النتوءات القابعة على سطح الأرض، بل إنها تتمتع بقوة ورسوخ. فكثافة كتلتها مستقلة عن كثافة ونوعية التربة المحيطة بها، فكأنها أثقال وأدوات ترسو على الأرض فتثبت قشرتها. فالطبقة التي تلي القشرة الأرضية تتكون من صخور ذات درجة حرارية عالية وضغط مرتفع، وتليها طبقة ثالثة أكثر حرارة وضغطًا ولزوجة، وبالتالي فكأن الطبقتين الأولى والثانية تَسبحان فوق الثالثة كألواح تطفو على سطح ماء. فلو لم تكن الجبال (الرواسي) موجودة لمادت بنا الأرض كقارب فوق بحر لجي، ولفقدت الأرض صلاحيتها للحياة. أما من حيث الرسوخ فالجبال كـ"الأوتاد" لها جزء ظاهر (قد يبلغ ثلثها) ولها امتدادات ضخمة (قد تبلغ الثلثين) تحت سطح الأرض، وهي مغروسة كالضرس في عظام الفكين. ولقد أكدت على ذلك، الدراسات المسحية الجيولوجية، كما أشارت لدورها الهام في إيقاف حركة الكثبان الرملية التي تتحرك أثناء هبوب الرياح، وقد تسبب خسائر فادحة.

مستودعات مياه

الجبال مستودعات مياه وتمدنا بنحو ٦٠-٨٠٪ من المياه العذبة. ويعتمد حوالي نصف سكان العالم، الذين يعيشون في جنوب وشرق قارة آسيا وأستراليا وغيرها، على الجبال (أبراج مياه) مصدرًا للمياه العذبة. وثمة علاقة بين الجبال والغيوم، فنرى أن قممها غالبًا ما تغطى بالغيوم أو الثلوج معظم أيام السنة، فتصميمها الانسيابي يجعل التيارات الهوائية تندفع بحركة أفقية، ثم تصطدم بالجبال فيتغير مسارها للأعلى، مما يسهم في تبريدها وتَشكُّل الغيوم والأمطار والثلوج، ومن ثم نزول الماء الفُرات، وتفجر الينابيع والأنهار شديدة العذوبة والنقاء. ففي أمريكا الشمالية يتغذى نهرَا كولورادو وريو جراندي العظيمان بشكل رئيس، من جبال روكي.

وهناك علاقة بين ارتفاع الجبل وكمية الماء الهاطل والمتدفق منه؛ إذ كلما كان أعلى ارتفاعًا كانت كمية الماء أكبر وأكثر نقاء وأطيب مذاقًا. وفي بلدان عديدة تحفظ الجبال الثلوج الهاطلة في الشتاء، ثم تذوب ببطء خلال الربيع والصيف. وغالبًا ما يعتمد الري في المناطق القاحلة، على المياه الناتجة من ذوبان الثلوج من جبال بعيدة. كما تلعب الجبال دورًا رئيسًا في توفير الطاقة المتجددة، مثل الطاقة الكهرومائية، والطاقة الشمسية، وطاقة الرياح، والغاز الحيوي لسكان المدن والمجتمعات الجبلية النائية.

كنوز مخبّأة في الجبال

تمثل الجبال موطنًا (أَكْنَانًا) يؤوي نحو ١٣٪ من سكان العالم، ويعيش أكثر من ٩٠٪ من هؤلاء السكان، في البلدان النامية؛ حيث يقطن أعاليها مجتمعات محلية ذات ثقافات عريقة ومتميزة. وعلى مر القرون تعلم قاطنوها العيش في بيئة جبلية قاسية، ودشنوا نظمًا زراعية لا تزال ناجحة عبر قرون، كما دجنوا حيوانات محلية -كاللاما، وأبقار الياك- قادرة على تحمُّل تلك البيئة.

وهناك عدد من المحاصيل الغذائية الأساسية، يعود أصلها إلى نباتات برية لا تزال تنمو في الجبال، فهي توفر زراعة عددٍ من المحاصيل الضرورية، مثل الذرة، والبطاطا، والبندورة، والقمح، والأرز، والشعير.. وتعتبر جبال اليمن موطنًا قديمًا لزراعة البنّ، والقمح، والشعير، والذرة، كما تُنتج كثير من المجتمعات الجبلية، وفرة من محاصيل الكاكاو، والعسل، والأعشاب، والتوابل، والصناعات اليدوية التي تحسّن سبل العيش، وتعزز الاقتصاديات العالمية والمحلية.

hiragate.com

التنوعات البيولوجية والنظم الإيكولوجية

توجد في الجبال نصف أهم مناطق التنوع البيولوجي العالمي، تدعم نحو ربع التنوع البيولوجي على الكوكب، حيث تستضيف ٢٨٪ من غابات العالم، وتحتوي على ٢٥٪ من التنوع البيولوجي. ويحتوي ما يقرب من ٦٠٪ من المحميات نظمًا إيكولوجية جبلية. فلقد أدت عزلة كثير من المناطق الجبلية إلى أن تكون ملجأ لأنواع نباتية وحيوانية قد تكون اختفت من المنخفضات؛ فمثلاً، يعيش في حديقة "كينابالو" الوطنية في ماليزيا ٤,٥٠٠ نوعًا من النباتات، كما أن حيوانات الباندا العملاقة في الصين، ونسور الكندور في جبال الأنديز، والنمور البيضاء في آسيا الوسطى، تعتمد على البيئة الطبيعية للجبال. ولقد صمم مزارعو الجبال الأصليون نظمهم الزراعية بطريقة تحمي التربة من التعرية، وتحافظ على الموارد المائية، وتقلل مخاطر الكوارث الطبيعية، لكن قد تتضرر النظم الإيكولوجية الجبلية جراء التغييرات المناخية العالمية.

وتعتبر الجبال جرس إنذار لتغير المناخ؛ فالثلوج الجبلية تذوب بمعدلات غير مسبوقة. ومع استمرار الاحترار العالمي، فإن سكان الجبال يواجهون تحديات كبرى. كما تبقى الجبال مُهددة جراء تدهور الأراضي، والاستغلال المفرط، والكوارث الطبيعية، مع ما قد يترتب على ذلك من عواقب مدمرة بالنسبة للمجتمعات الجبلية وبقية العالم.

أهمية ثقافية ونفسية وسياحية

سمّت منظمة اليونسكو العديد من الجبال، كمواقع تراث عالمي، ومحميات محيط حيوي. وحددت الجمعية العامة للأمم المتحدة تاريخ ١١ ديسمبر/ كانون الأول من كل سنة، يومًا عالميًّا للجبال. ومنذ ٢٠٠٣ يُحتفل بهذا اليوم سنوياً للتوعية بأهمية الجبال في الحياة، وتسليط الضوء على فرص ومعوقات التنمية

لو لم تكن الجبال لمادت بنا الأرض كقارب فوق بحر لجي، ولفقدت الأرض صلاحيتها للحياة، والجبال كالأوتاد لها جزء ظاهر ولها امتدادات ضخمة تحت سطح الأرض، وهي مغروسة كالضرس في عظام الفكين.

الجبلية. فضلاً عن تشكيل وعي بيئي عالمي من شأنه إحداث تغييرات إيجابية تصب في صالح شعوب الجبال والبيئات المحيطة بها. ولم يكن "جون ميور" (عالم بيولوجي وكاتب أميركي) مخطئًا عندما أشار منذ أكثر من قرن، إلى أن للجبال قدرة على تحريك مشاعر الإنسان. فالجبال المهيبة تولّد إعجابًا وانبهارًا بجمالها، ورهبة في نفوسنا، وتريحنا بسكونها، وتسحرنا بتنوع نباتاتها وحيواناتها.. ولذلك يقصد ملايين الأشخاص سنويًّا المناطق الجبلية ينشدون فيها انتعاشًا لنفوسهم، ومتعة لأبصارهم، وإلهامًا لأرواحهم.

وتحتل السياحة الجبلية الترفيهية نسبة ١٥-٢٠٪ من صناعة السياحة العالمية؛ فهي تجذبهم إلى مجموعة من الأنشطة والمغامرات، بما في ذلك رياضة التزلج على الجبال الجليدية، وتسلق الجبال، واستكشاف الكهوف والمغارات، ورياضة السير لمسافات طويلة.. وليس من قبيل المبالغة أو التحيز القول إن وطننا العربي يتمتع بمقومات طبيعية مؤثرة في السياحة الجبلية، كالموقع الجغرافي، والتركيب الجيولوجي، وتشكيلات سلاسل الجبال، والمناخ المعتدل، وتنوع الحياة البرية، الحيوانية والنباتية.

كما تجذب الحدائق الوطنية النائية ملايين السياح سنويًّا، حيث يسافر الناس إلى حديقة "دينالي" الوطنية في "ألاسكا" لرؤية جبل "ماكينلي" أعلى قمة في أمريكا الشمالية، ويقصد كثيرون الأخدود العظيم للتمتع بمشاهدة جبلَي كيليمانجارو وميرو المَهيبَين، أو لمراقبة القطعان الكبيرة من الحيوانات البرية التي تعيش في الوادي الفاصل بين هاتَين القمتَين،

hiragate.com

وتفيد هذه السياحة العديد من المجتمعات الجبلية.

أنواع وألوان وجمال

تنتظم جبال العالم في ثلاثة أنواع: جبال منفردة، وسلاسل جبلية، وأحزمة جبلية. وتتعدد أنواعها؛ فمنها الجبال الالتوائية الأكثر انتشارًا، وهي عبارة عن أعداد لا نهائية من الجبال، تكونت أثناء الحركة الالتوائية التي تعرضت لها الأرض في العصر الثالث. ويصنف الجبل بأنه التوائي عندما يتجاوز ارتفاعه أربعمائة متر على الأقل، ولا يتخطى عرضه ألف متر على الأكثر، ومن أهم أمثلته جبال الألب، والبرانس، والروكي. ومنها الجبال الانكسارية التي مرت بنفس ظروف تشكل الجبال الالتوائية تقريبًا، لكن بدلاً من الالتواء حدث الانكسار فسميت بذلك، ولا توجد أعداد كبيرة منها. وهناك الجبال الجليدية، وغالبًا ما تكون في قلب أحد الأنهار أو المحيطات، أما الجبال الزرقاء فتحتوي من الجمال ما يكفي لجعلها ضمن مناطق التراث العالمي، وتُعتبر مزارًا سياحيًّا عالميًّا.

وللجبال ألوان مثل البشر؛ فهناك جبال بيض وحمر وسود. وتختلف الجبال من مكان لآخر وفقًا لكمية ونوعية معادنها؛ فالجبال البيضاء مملوءة بمواد جيرية، ولهذا فإن معظم مصانع الجير تكون عادة بالقرب من هذه الجبال. أما الجبال التي تكون غالبية مكوناتها من الحديد فألوانها مائلة إلى الأحمر؛ حيث الحديد الموجود في تربتها يتفاعل مع المطر والرطوبة، مما يجعله يتأكسد مُتحولاً إلى اللون الأحمر والبني. أما الجبال التي غالب مكوناتها من البازلت أو من البراكين فتكون سوداء.. لذا، فالجبال مصدر هام لأنوع المعادن والثروات الهائلة التي تختفي فيها، ومن أجل أن يظفر الناس بهذه الثروات، فهم يهرعون إليها للبحث عنها. أما الجبال الخضر فأخذت لونها من الأشجار والغابات التي تكسوها وليس لونها الأصيل.

وأما جماليًّا فأنت تقف أمام معرض كوني جميل، ولوحات وتشكيلات مفرداتها سماء صافية، وشمس مشرقة، ونسمات مُنعشة، ومياه فيروزية، وشلالات مهيبة، وبحيرات ساحرة، ورمال ناصعة، وشواطئ متعرجة، وكهوف رخامية، وتشكيلات صخرية، وألوان بديعة وتكوينات دقيقة فريدة.. تأخذك الدهشة والرهبة والإبهار من هذا التناسق والتناسب والروعة والإبداع. ولقد تكونت هذه التشكيلات الصخرية، والكهوف الحجرية، والشواطئ المتعرجة للجبال عبر ملايين السنين، نتيجة عدة عوامل من أهمها المياه والثلوج والرياح، وتقلّبات الطقس، وطاقة الشمس، وحركة الأرض، وقوة الجاذبية الأرضية، والتفاعلات الكيميائية، وتأثير الأحياء والإنسان.. ويُسفر التأثير المتداخل المتفاوت الرتيب لهذه العوامل، عن ظاهرة التعرية (Erosion)، والتي تُجزئ التكتلات الصخرية وتفككّها وتفتتها "التجوية" (Weathering). ولا تختلف الظاهرتان عن بعضهما البعض، فلهما الأثر البالغ في عملية الحتّ، إلا أن التعرية تفتت الصخور، وتنقلها لأماكن أخرى، بينما تقتصر التجوية على التفكيك والتفتيت فقط. وتتم الأخيرة بطريقتين متكاملتين ميكانيكية وكيميائية؛ فالأولى تسبب تصدّع الصخور ومعادنها، وتفتتها إلى أجزاء أصغر فأصغر، تتحاتّ ببعضها خلال تعريتها وانتقالها إلى مواقع استقرارها، ويكون التآكل الميكانيكي على أشده في الأماكن العارية من النباتات. بينما تختلف المعادن وفق صلابتها وصلادتها من حيث قابليتها للتجوية. ففي الوجود الجامد جمال، كما في الوجود الحي جمال، ولا ينبغي أن يُرى هذا الجمال المتغلغل في الكون دون تذوقه ومعرفة مُبدعه ومُوجده. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

حمزة الوهابي*

التحيز ونقد الحداثة الغربية
عند عبد الوهاب المسيري

يطلق الدكتور والفيلسوف المصري عبد الوهاب المسيري في مقاربته وتفاعله مع ما تنتجه مختلف التجارب الحضارية الإنسانية، من أن لكل تجربة اصطلاحاتها، والاصطلاح في العلم أو التجربة -بالنسبة له- هو اتفاق جماعة من المتخصصين في مجال واحد على مدلول الكلمة أو الرقم أو المفهوم، وذلك يتم عادة نتيجة تراكم معرفي وحضاري وممارسات فكرية، تتم في إطار معين لمدة من الزمن ثم يتم بعد ذلك محاولة تقنين هذه المعرفة.

ومن هذا المنطلق، يرفض المسيري مجموعة من المصطلحات الغربية التي يتم نقلها عن الغرب دون مجهود فكري أو اجتهاد، لأنه يعتبرها مصطلحات نتجت عن تجربة حضارية خاصة بسياق خاص، ودعا -بدلاً من ذلك- للنظر إلى أي ظاهرة في سياقها من أجل توليد المصطلح الخاص بها من داخل معجم التجربة الحضارية الغربية، وبالتالي تكون التسمية، من وجهة نظرنا الخصوصية لا عن طريق استيرادها بدعوى العمومية.

من هذا الباب أسس المسيري لمجال تداولي جديد يعنى بدراسة الظواهر الإنسانية أسماه "التحيز"، وعمل على بلورته باعتباره رؤية اجتهادية لمحاولة سبر أغوار

الخصوصية والكونية في عصر العولمة الذي نعيشه. وقد اختار المسيري مصطلح "التحيز"، ليطلقه على مجال جديد لدراسة الظاهرة الإنسانية من صميم المعطى الإنساني المرتبط بإنسانية الإنسان، باعتباره كائنًا متحيزًا بطبعه.

أطلق المسيري على هذا التخصص الجديد، الذي يركز على دراسة وتحليل عناصر التحيز في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وكشْف وخصوصيات التحيزات الحضارية الكامنة في مناهجها المستخدمة في العلوم الغربية، اسم "فقه التحيز". وقد اعترف منذ البداية في تقديمه للموسوعة البحثية التي أشرف عليها في إطار أعمال المعهد العالمي للفكر الإسلامي -المسماة إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد- بأنه متحيز منذ البداية إلى رصيده الثقافي العربي وما يكمن فيه من معارف ومناهج.

يقول: "..تساءلت لماذا لا نضع أسس علم جديد له آلياته ومناهجه ومرجعيته، يتعامل مع قضية التحيز هذه ويفتح باب الاجتهاد في خصوصيتها؟ فالجميع له نفس الإحساس بأن هوية الأمة -سواء كانت قومية أو دينية- مهددة بسبب تبنيها لنماذج ورؤى الآخر دون إدراك عميق -أحيانًا- للتضمينات المعرفية لهذه المناهج".

ويضيف المسيري: "لقد استخدمنا كلمة "فقه" بدلاً من علم؛ لأن الكلمة الأولى تسترجع البعد الاجتهادي والاحتمالي والإبداعي للمعرفة، على عكس كلمة علم التي تؤكد جوانب الدقة واليقينية والحيادية والنهائية"، وهذا عين ما يميز المعارف الغربية بالنسبة له.

إشكالية التحيز عند المسيري

لقد أراد المسيري أن يكون فقه التحيز، أداة لتحديد التحيزات الكامنة في المناهج والأدوات، التي يستوردها الباحثون العرب بكل أمانة من المجال التداولي الغربي، ذلك أنها -برأيه- أكثر التحيزات شيوعًا وخطورة؛ فالكثيرون يرون القيم الغربية على أنها قيم عالمية ويتبنونها دون إدراك لخصوصيتها الغربية، سواء كان استيرادهم وتبنيهم عن وعي أو عن غير وعي، ما يجعل الباحث يرتبط ارتباطًا جدليًا بمجموعة من الأفكار، فيجد نفسه متحيزًا لبعض الظواهر والأفكار ويهمل أو يستبعد أخرى، مما يقع خارج نطاق الاستعارات والنماذج الكامنة.

أما عن قواعد فقه التحيز، فيذكر المسيري أن أولى قواعده أنه حتمي، ذلك أنه مرتبط ببنية العقل الإنساني ذاته، الذي لا يسجل تفاصيل الواقع كآلة صماء دون اختبار أو إبداع، فهو فعال يدرك الواقع من خلال نموذج فيستبعد بعض التفاصيل، ويبقي بعضها الآخر، ويضخم بعض ما تبقى ويمنحه مركزية ويهمش الباقي. ثم أيضًا لكونه لصيقًا باللغة الإنسانية نفسها، فلا توجد لغة واحدة تحتوي كل المفردات الممكنة للتعبير عن الواقع بكل مكوناته، مما يعني أن اللغة الإنسانية ليست محايدة، مثل لغة الجبر والهندسة التي تصلح للتعبير عن عالم الأشياء المحايد، ولكنها تخفق تمامًا في الإفصاح عن أبسط العمليات الإنسانية. فاللغة الإنسانية أداة ثرية مرئية تحوي داخلها كثيرًا من الأسرار، وكل هذا يعني أن التحيز من صميم المعطى الإنساني، ومرتبط بإنسانية الإنسان، أي بوجود الإنسان ككائن غير طبيعي لا يرد إلى قوانين الطبيعة العامة.

أما ثاني قواعد فقه التحيز عند المسيري، فهي كونه حتميًا وليس نهائيًا، ذلك أن حتمية التحيز وارتباطه بالإنساني والثقافي، لا يؤدي بالضرورة إلى الاكتئاب والحزن، فهو ليس نقيصة أو عيبًا.. فيصبح من ذلك أن التحيز هو حتمية التفرد والاختيار الإنساني.. وهذه المفارقة -حسب المسيري- هي ما يمكن أن تشكل إطارًا لإنسانيتنا المشتركة المتنوعة والموجودة بقوة الفطرة، ولا يعني بالضرورة التناحر ونفي الآخر، ذلك أن إمكانية التواصل والتعارف متاحة دائمًا.

نقد الحداثة الغربية عند المسيري

ينطلق المسيري من الاعتقاد بأن العالم (إنسانًا وطبيعة) -بالنسبة له- يتسم بما يسميه "الثنائية الفضفاضة"، التي هي في الواقع تعبّر عن تحيزه الكامن المنطلق من كون الإنسان كائنًا مفارقًا للطبيعة، عكس ما تنطلق منه النماذج المعرفية الغربية؛ ذلك أنها تنطلق من كون الإنسان كائنًا طبيعيًا. وهذه الثنائية الفضفاضة -بتعبير المسيري- تقابل مبدأ الواحدية (المبدأ الأساس في الفلسفة الغربية)؛ فالثنائية هي الإيمان بوجود أكثر من جوهر في هذا العالم، وهي أساسية في النظم التوحيدية، وهي قائمة على ثنائية الخالق "المنزه عن الإنسان والطبيعة والتاريخ"،

hiragate.com

والمخلوق. وهي فضفاضة تكاملية، حيث إن الله تعالى مفارق للعالم، إلا أنه لم يهجره ولم يتركه وشأنه. وينتج عن ذلك ثنائيات تكاملية عدة من أهمها ثنائية الإنسان والطبيعة، التي تفرض انفصال الإنسان عن الطبيعة وأسبقيته عليها واستحالة رده إليها وتفسيره في إطارها.. ذلك أن الإله خلق الإنسان وكرمه واستخلفه في الأرض.

وبالتالي يصبح وجود الله من وجود الإنسان، إذ الله تعالى هو الضامن الوحيد لوجود الإنسان بجزئيه الطبيعي وغير الطبيعي، فالله هو التركيب اللانهائي المفارق لحدود المعطى النهائي، وهو نقطة يتطلع إليها الإنسان ويحقق التجاوز من خلالها، ومن ثم بغيابه يتحول العالم إلى مادة طبيعية صمّاء، خاضعة لقوانين الحركة والضرورة التي يمكن حصرها ودراستها والتحكم فيها.

وانطلاقًا من هذا الموقف الثقافي المتحيز -ابتداء وانتهاء- ينطلق المسيري في نقده للحداثة الغربية، باعتبارها تنطلق من نموذج معرفي كامن يؤمن بالواحدية بدل الثنائية، التي تبني موقفها الوجودي من اعتبار الإنسان كائنًا طبيعيًّا (ماديًّا) يمكن تفسيره ماديًّا من خلال قوانين الطبيعة.

مأزق المادية وتحيزاته الثقافية في الحداثة الغربية

يتحدث المسيري في الفصل الرابع من كتابه "رحلتِي الفكرية"، عن اكتشافه أو تحوله من بساطة المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان، فينطلق من فكرة تآكل النموذج المادي في وعيه، وينطلق من تحيزات الأخير المعرفية والثقافية. ثم ينطلق بعدها من فكرة الثنائية بدل أطروحة الواحدية المعتمدة في الفلسفة المادية، ذلك أنه خلال الأخيرة، ظهر تناقضه بين النموذج المادي المهيمن عليه ظاهريًّا من جهة وسلوكه الحر، وما يلاحظه في الواقع من جهة ثانية.

ويتحدث المسيري على أن ما ساعده على ترسيخ النموذج المركب في وعيه الباطن وفي وجدانه، هو الدراسة الأدبية، فيقول: "الأدب يكاد يكون التخصص الوحيد الذي لا يزال يتعامل مع الإنسان بوصفه إنسانًا، أي إنه مركب لا يمكن رده إلى عنصر أو عنصرين في الواقع، ولا يمكن تفسيره في ضوئهما". ثم يسترسل في السياق نفسه وهو يتحدث عن تجربته المادية فيقول إن "هذا العالم يتناقض بين نموذج ظاهر مادي، ونموذج كامن

التحيز هو حتمية التفرد والاختيار الإنساني، وهذه المفارقة هي ما يمكن أن تشكل إطارًا لإنسانيتنا المشتركة المتنوعة والموجودة بقوة الفطرة، ولا يعني بالضرورة التناحر ونفي الآخر، ذلك أن إمكانية التواصل والتعارف متاحة دائمًا.

يصل إلى الجوهر الإنساني المفارق لصيرورة المادة، وقصة أي تحول، ما هي إلا صراع خفي بين النموذجين".

بتفصيل أكبر، يتحدث المسيري في كتابه "الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان" بشكل أكثر دقة عن أصل الإشكالية، فيقول إن أصل النقاش يستبطن العودة إلى محاولة الإجابة عن جدلية الإنسان والطبيعة، أي محاولة الإجابة عن سؤال الوجود، حيث تعددت الإجابات إلى إجابتين تشكل كل واحدة منها مدرسة قائمة الذات. المدرسة الأولى هي مدرسة الحلولية، والمدرسة الثانية هي مدرسة التوحيد بتعبير علي عزت بيغوفيتش.

تنطلق المدرسة الأولى من فرضية أن الإجابة عن سؤال الوجود كامن في الطبيعة وحالٌّ فيها، أي إن الله تعالى حلّ في الطبيعة فصار كل ما فيها يمثل سر الوجود بأكمله أي يمثل الله ﷻ، وبالتالي أصبحت الطبيعة غاية في حد ذاتها، بحيث إنه لا وجود لإله بلا طبيعة ولا وجود للطبيعة بلا إله (بالنسبة لمدرسة الحلول الكموني الروحي).

أما المدرسة الثانية (مدرسة التوحيد) فتنطلق من الاعتقاد بأن السر الإلهي غير متماهٍ مع الطبيعة، فالله سابق على وجود الطبيعة، وهو لم يحلّ في عالم الشهادة بل بقي متواريًا في الغيب، ومنه تصبح الطبيعة أحوج إلى الله ولكن الله ليس في حاجة إليها؛ إذ إن سره قائم في ذاته الغيبية لا بما أوجد في عالم الشهادة. ومن هنا كانت إضافة هذه المدرسة في جدلية الطبيعة والإنسان، هو البعد الغيبي، حيث صارت الجدلية جدلية غيب وإنسان وطبيعة، بدل جدلية طبيعة وإنسان. فلا سبيل لمعرفة السر والإجابة عن سؤال الوجود، إلا من خلال الاعتماد على مكوِّن الغيب، فصار وجود هذا المكوِّن أو غيابه في حياة الإنسان، ذا أثر مصيري محيط بكل عالم الأخير. فمثلاً، حينما نتحدث عن الأعياد عند

hiragate.com

المدرسة الأخيرة، نجدها مرتبطة بغاية متجاوزة لعالم الشهادة ومرتبطة بعالم الغيب، ومن هنا نجد مركزية الغائية عند المدرسة التوحيدية. وهذا عكس ما نجده في المدرسة الحلولية.

وهذه الأخيرة فيها اتجاهان كما يعبر عن ذلك المسيري، اتجاه الحلولية الكمونية الروحية واتجاه الحلولية الكمونية المادية؛ في الأول يسمى المبدأ الواحد فيها بـ"الإله" ولكنه يحل في مخلوقاته ويمتزج، ثم يتوحد معها ويذوب فيها تمامًا، بحيث لا يصير له وجود دونها ولا يصير لها وجود دونه، أي إنه لا يبقى من الإله سوى الاسم والصفة، فهو متحد تمامًا بالطبيعة المادية. لكل هذا، يمكن الحديث بلغة روحية عن عالم المادة، ولغة مادية عن عالم الروح، فهذا عالم ذو بعد واحد لا يتسم بأي ثنائية كما يقول "سبينوزا" ومن بعده "هيجل". ويصبح في هذه الحالة بإمكان الإنسان -إذا مارس تجربة جسدية ممتعة- بأن يصفها بأنها تجربة روحية. أما الحلولية الكمونية المادية (وحدة الوجود المادية) فيعبر عنها المسيري بأنه لا يتم الاستغناء فيها تمامًا عن اسم "الله" وعن أي لغة روحية أو مثالية، ويسمى المبدأ الواحد فيها بقوانين الطبيعة أو القوانين العلمية أو قانون حركة التاريخ أو الحتمية التاريخية.. وتصفى الثنائية في هذه الحالة وتسود الواحدية المادية، فكل الأشياء مادية وبالتالي متساوية.

الإمبريالية النفسية في الحداثة الغربية

"كانت إحدى الصور النمطية الشائعة في عقولنا والنموذج التفسيري الكامن فيه، أن الجنس طاقة مادية، إنْ فرغت بطريقة عادية طبيعية سوية؛ فإن الفرد يصبح عاديًّا طبيعيًّا وسويًّا، أما إن كبتت فإنها تصبح قوة مدمِّرة. وهي معادلة بسيطة ومعقولة لأول وهلة على الأقل، ولذا كان من المفهوم أنْ ينشغل الشرقيون بالجنس، فهم مكبوتون وهو ما أدى إلى تشوههم النفسي الكامل، وهذا عكس الغرب تمامًا، لأنهم يتصرفون بشكل طبيعي، ذلك أنهم يسربون الطاقة الجنسية بطريقة عقلانية بلا قمع ولا كبت".

ثم يتساءل عن كيف يمكن أن ننظر إلى هذا الهوس الجنسي بحسبانه تعبيرًا طبيعيًّا عن رغبة جنسية طبيعية؟ فيقول مجيبًا عن هذا التساؤل، بأن عدم اكتراث الغربيين بمسألة الجنس وتعبيراتها بشكل فاضح، كان نتيجته اختزال الإنسان وداوفعه، ولهذا لم يدرك كثير منهم أن الجنس مسألة إنسانية مركبة خاصة وفردية، وأنها مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية.

وبالتالي تظهر لنا علاقة بين بحث الإنسان عن المطلق ورغبته في التجاوز والنزعة الطوبوية من جهة، وتصاعد رغبته الجنسية من جهة ثانية، فكلما ضمرت النزعة الطوبوية وتوارت المقدرة على التجاوز، زاد السعار الجنسي كمحاولة لتعويض الإنسان عن اختفاء عالم الأحلام، بحسبان أن عالم الجنس هو البديل المادي والمباشر عن المدينة الفاضلة. ولعل هذا البحث عن اللذة الجنسية الخالصة الفردوسية، هو الذي يفسر لنا انتشار الشذوذ الجنسي، وهو النتيجة المنطقية والترجمة الوحيدة الأمينة لمبدأ اللذة النفعي.

وعندما يتحدث عبد الوهاب المسيري عن المنتج الحضاري ومدى تأثيره على النفس والوجدان يقول: "إن بعض المنتجات الحضارية -التي قد تبدو بريئة تمامًا ومجرد تسلية مؤقتة- تؤثر في وجداننا وتُعيد صياغة رؤيتنا لأنفسنا وللعالم، إذ إن أولئك الذين يرتدون التِّيشيرت، ويشاهدون الأفلام الأمريكية، ويسمعون أخبار وفضائح النجوم ويتلقفونها، ويشاهدون كمًّا هائلاً من الإعلانات التي تغويهم بمزيد من الاستهلاك، ويهرعون بسياراتهم من عملهم لمحلات الطعام الجاهز وأماكن الشراء الشاسعة.. يجدون أنفسهم يسلكون سلوكًا ذا توجُّه علماني شامل، ويستبطنون عن غير وعي مجموعة من الأحلام والأوهام والرغبات هي في جوهرها علمانية شاملة، دون أية دعاية صريحة أو واضحة.

ونظرًا لعدم إدراك البعض لأشكال العلمنة البنيوية الكامنة هذه، فإنه لا يرصدها، ولذا، يُخفق هذا البعض في تحديد مستويات العلمنة الحقيقية. وعلى هذا، فقد يُصنَّف بلد باعتباره إسلاميًّا -مثلاً- لأن دستور هذا البلد هو الشريعة الإسلامية، مع أن معدلات العلمنة فيه قد تكون أعلى من بلد دستوره ليس بالضرورة إسلاميًّا، ولكن معظم سكانه لا يزالون بمنأى عن آليات العلمنة البنيوية الكامنة". ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

hiragate.com

خلف أحمد أبو زيد*

دواء اسمه الضحك

يُعدّ الضحك منشطًا نفسيًّا كبيرًا، اعتبره علماء النفس مفعولاً مزيلاً للتسمم المعنوي والجسدي؛ لأنه يساعد في التخلص من نوبات الاكتئاب البسيطة والمخاوف، ومن حالات القلق التي يتعرض لها المرء في حياته اليومية. ويشير الباحثون إلى أن الضحك يسهم أيضًا في تخفيف آثار التوتر الضارة بصورة كبيرة، حيث يقلل الشعور بالإحباط، ويسمح بتفريغ العواطف المكبوتة.

وقد ثبت علميًّا أن الضحك يعمل كصمام أمان يقلل من إفراز هرمونات الإجهاد، وعندما نضحك تزداد مناعة الجسم بزيادة إفراز بروتين جاما إنترفيرون -المقاوم للأمراض- وخلايا "Teels"، وخلايا "Beells" خلايا الدفاع ضد الأمراض، كما يرتفع الأكسجين في الدم وتتحسن الدورة الدموية،

ويزداد تركيز جلوبيولين المناعة (أ) في اللعاب، ويعمل ضد عدوى الجهاز التنفسي، وتزداد الإندورفينات وقاتلات الألم التي يفرزها المخ، وتتعزز القدرة على تخزين المعلومات في المخ.. الضحك إذن، يخفف من ضغوط الحياة، ويحفظ ضغط الدم، ويقوي مناعة الجسم، ويسكّن الألم، ويقلل القلق، ويخفض التوتر ويريح المخ، كما أنه يشجع على التواصل مع الآخرين، ويلهم الإبداع، ويرفع ويدعم المعنويات.. فهو خير مزيل للتسمم المعنوي.

رياضة الضحك

الضحك رياضة هامة يدخل الهواء النقي إلى الرئتين، ويجعل عضلات الجسم في حالة استرخاء جميلة؛ تساعد على تجديد النشاط الحيوي، وتولد الشعور بالصحة، الأمر الذي يحدث الراحة العقلية للإنسان.

وتؤكد الأبحاث العلمية أن الضحك يعادل في آثاره الصحية القيامَ برياضة صعبة مثل التجديف لفترة طويلة، فما يصدر عن الضحك من شهيق وزفير، يماثل في قوته ما يصدر عن آداء التمرينات الرياضية، فهو يزيد من تدفق الدم في الشرايين، ويزيد من سرعة التنفس، ومن تعاظم استهلاك الجسم للأوكسجين.. وكلها عوامل تساعد في تقوية الجهاز الحيوي عند الإنسان.

اضحك من أجل قلبك

هناك مقولة مشهورة تقول: "اضحك من قلبك"، ونقول نحن هنا "اضحك من أجل سلامة قلبك".. لقد ثبت علميًا أن الضحك يقلل من خطر الإصابة بنوبات القلب؛ ففي مارس عام ٢٠٠٥م أعلنت جماعة من الباحثين من جامعة ميريلاند -ولأول مرة- أن الضحك يتسبب بالفعل في تمدد البطانة الداخلية للأوعية الدموية، الأمر الذي يزيد من تدفق الدم، وهذا أمر طيب لصحة القلب.

وكان الدكتور "ميشيل ميلر" رئيس هذه المجموعة البحثية، لاحظ سابقًا، أن مرضى القلب على وجه العموم، يستجيبون لوقائع الحياة اليومية بقدر من البشاشة يقل عنه عند الأصحاء. كما لاحظ آخرون أن احتمال إصابة أصحاب النظرة المتفائلة بمرض القلب أقل من غيرهم.

وقد قدر الباحثون تدفق الدم في الشريان العضدي لمائة وستين حالة، واتضح أن التدفق قد ازداد في ٩٥٪ منهم أثناء مشاهدتهم فيلمًا فكاهيًا، وأن نسبة ٧٥٪ ممن شاهدوا فيلمًا حربيًا قد انخفض لديهم هذا التدفق؛ حيث بلغ متوسط الزيادة في تدفق الدم أثناء الضحك ٢٢٪، وبلغت نسبة الانخفاض ٣٥٪ في حالة الإجهاد

الذهني، استمر الأثر ٣٠-٤٥ دقيقة عقب مشاهدة الفيلم، وقد فسر الدكتور ميلر ذلك الأمر بقوله "تحمل البطانة الداخلية للأوعية الدموية مستقبلات للإندورفين الذي ينشط مستقبلات، ليتسبب في تفاعلات تؤدي إلى اتساع الأوعية، بينما يتسبب الإجهاد الذهني في إفراز هرمونات الإجهاد، مثل الكورتيزول الذي يقلل بدوره من إفراز أكسيد النيتريك من خلايا البطانة، الذي يؤدي إلى انقباض الوعاء.

وخلاصة القول كما يقول "وليم فراي" أستاذ العلاج النفسي في كلية الطب بجامعة ستانفود: "إن كمية كافية للضحك، قد تقلل من خطورة أمراض القلب والاكتئاب والحالات المرضية التي يسببها الإجهاد والقلق".

الضحك حتى البكاء

قد تنتاب الإنسان حالة من الضحك الشديد الذي تسيل معه الدموع على الخدين، هذه الحالة من الضحك الشديد، هي التي تُعرف بالضحك حتى البكاء.. والتفسير العلمي لهذه الحالة التي تنتاب البعض عند الضحك "بأنها اختلاجات عضلية منقطعة تستهلك الكمية الفائضة من التوتر، فإذا استمر التنبه وعجز الضحك من استنفاذ التوتر، انتقلت آثار الدغدغة إلى العضلات الحشوية، فتنبه بعض الغدد وخاصة الغدد الدمعية ويتحول الضحك إلى بكاء، وحينئذ ترتخي العضلات ويسكن الجسم. وقد أثبت طب العيون أن هذه الحالة من الضحك، بمثابة تنظيف وتطهير للعدسات على مستوى عالٍ من الشفافية والدقة تنقي بها العيون.

هذا وقد بدأ العلماء اليوم، في اسخدام الضحك أساسًا لإستراتيجية علاجية حقيقية اسمها "جيلوتيراني" تقوم على أساس استخدام تقنيات استرخاء ويوجا، من خلال تعلم منعكسات تنفسية وتمارين خاصة. كما تلجأ العديد من المشافي في أوروبا، والولايات المتحدة الامريكية، إلى استخدام مهرّجين لتسلية نزلائهم والترويح عن أنفسهم.. ومع أن هذا الأمر لا يؤدي بالضرورة إلى شفاء المرضى فإنه يساعدهم على نسيان آلامهم، ويعطيهم دفعًا معنويًّا يعينهم على الصمود في وجه المرض. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

نبض التاريخ

بَدَا للعيونِ بهاءُ الزهورْ
لطيفًا، ولكنْ حذارِ الغرورْ
فزَهْوُ الجمالِ المدلّلِ يبْقى
قَرِينًا بقُوّةِ نَبْضِ الجُذورْ
ومَنْ لم يكنْ في رُؤاهُ أصيلاً
فحَتْمًا عليهِ الذّبولُ يدورْ

***

د. محمد علي الدراوي*

منظومة القيم

من خلال وصية لقمان

لما كانت المؤسسة الأسرية النواةَ الأولى للتنشئة الاجتماعية، واللبنة الأساس التي تضع أسس وقواعد الشخصية المستقبلية -وعلى غرارها المؤسسة التعليمية- كان من اللازم التنبيه إلى دور هاتين اللبنتين في غرس القيم وتثبيتها في نفوس الأجيال الصاعدة، وكان لزامًا أيضًا النهل من منظومة القيم المتكاملة في كتاب الله تعالى. ولعل سورة لقمان تحمل بين آياتها كثير من القيم التي ما لبث الأب المربي يزرعها في فؤاد ابنه، ضاربًا بذلك أروع الأمثلة في بيان أهمية المؤسسة الأسرية.

تبقى وصية لقمان لابنه -وهو يعظه- أهم درس خلُقي وأدب رباني لا زال يعطي لأطفال كل عصر ما يتناسب وحضارتهم، ولكل جيل ما يهيئه ويعدُّه إعدادًا قويًّا صالحًا، يتجاوب مع هذه الحضارة وتلك المعطيات الحية؛ بخلود القرآن الكريم وازدهار حضارته وأصالة قيمه الخلُقية والبلاغية.

ولا شك أن الناظر المتمعن في كلمات هذه الوصايا الخالدة، لَيلحظ ما فيها من القيم الراسخة التي تعد منهجًا مهمًّا للأسر في تربية أبنائها، وللأساتذة في تربية متعلميهم.

١- القيم التي تستهدف المربين

أ-قيمة رعاية المسؤولية: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾(لقمان:١٣)، فأولى القيم التي على المربّين تمثلها، قيمة رعايةِ أمانةِ تربية الأبناء، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّا عرضنا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ والجِبَالِ﴾(الأحزاب:٧٢)، ويؤكد هذا قول رسول الله ﷺ: "كُلُّكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" (متفق عليه).

فإن تخلّى المربون -آباء كانوا أو أساتذة- عن قيمة رعاية الأمانة، فقد لحقهم إثم كبير ووبال عريض، ونالوا خسارة جسيمة، وخانوا الأمانة التي وضعها الله في أيديهم، وأضاعوا الوديعة التي كلفهم الله بحفظها.

ب-قيمة وعظ المتعلمين: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾(لقمان:١٣)، ووعظ الأبناء، من القيم الضرورية التي يرسخها لقمان في نفوس المربّين. ذكر الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير"، أن جمهور المفسرين قالوا إن ابن لقمان كان مشركًا فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده، وأن الوعظ زجر مقترن بتخويف. ولعل ابن لقمان كان يدين بدين قومه، فلما فتح الله على لقمان بالحكمة والتوحيد أبى ابنه متابعته، فأخذ يعظه حتى دان بالتوحيد.

إن ما يستفاد من قصة لقمان الحكيم مع ابنه؛ أن تأديب الأبناء والتلاميذ بالوعظ، من أنجع الوسائل وأفضلها في إكسابهم فضائل الأخلاق، وتحلّيهم بالتربية الصالحة، وبعدهم عن سفاسف الأمور ورديء الأخلاق، لذلك وجب على الآباء والأمهات التحلّي بهذه القيمة مع أبنائهم وفلذات أكبادهم.

جـ-قيمة التودد في معاملة المتعلمين: لقد افتتحت الموعظة بنداء المخاطَب الموعوظ "يا بُنَيّ" مع أن توجيه الخطاب مغنٍ عن ندائه لحضوره بالخطاب. وبُني تصغير "ابن" مضافًا إلى ياء المتكلم، فلذلك كسرت الياء. والهدف من التصغير، تنزيل المخاطَب الكبير منزلة الصغير، وهو كناية عن الشفقة به والتحبب له، وهو في مقام الموعظة والنصيحة إيماء وكناية عن طلب النصح وحب الخير، ففيه حث على الامتثال للموعظة.

د-قيمة تجديد النصيحة للمتعلمين وعدم القنوط: إن من الأمور الأخرى التي وجب الوقوف عندها، أننا نجد

إن تأديب الأبناء والتلاميذ بالوعظ، من أنجع الوسائل وأفضلها في إكسابهم فضائل الأخلاق، وتحلّيهم بالتربية الصالحة، وبعدهم عن سفاسف الأمور، لذلك وجب على الآباء والأمهات التحلّي بهذه القيمة مع أبنائهم.

حراء

كثيرًا من المربّين يعطي لمتعلميه فرصة واحدة ليعظهم بالتي هي أحسن، ليلجأ مباشرة إلى العنف بعدها في حالة الفشل.. ولكننا في قصة لقمان مع ابنه نستشف أمرًا آخر مغايرًا، فما لبثنا نجد لقمان الحكيم المربي الودود، يعيد ويكرر النداء والتودد في كل مرة؛ فتكرير النداء يفيد تجديد نشاط السامع لوعي الكلام، وهذا لا محالة من الدروس العظيمة التي يحتاجها المربّون مع متعلميهم.

٢- القيم التي يستهدف المربّون غرسها في الأبناء

إن المتأمل في هذه الوصايا الخالدة، يلحظ جليًّا استهداف التربية القيمية لأبعاد الشخصية الإنسانية جميعها، من أجل بناء التوازن النفسي عند الفرد. فنجد أن هذه الرزنامة من القيم، استهدفت علاقة الفرد مع ربه بداية، ثم علاقة الفرد مع نفسه ثانيًا، ثم علاقته مع المحيط الذي يعيش فيه أخيرًا. تنوع قيمي فريد؛ قيم اعتقادية إيمانية وأخرى خلُقية ثم اجتماعية.

ووصايا لقمان لابنه، تؤسس لجملة من القيم الاعتقادية الإيمانية، توطد لعلاقة الإنسان مع ربه تعالى.. ويبقى من أهم هذه القيم:

أ-قيمة إخلاص العبودية لله: قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣)؛ تُصور هذه الوصيةُ قضيةَ التوحيد وإخلاص العقيدة لله وحده لا شريك له؛ فالشرك بالله ظلم عظيم وجرم كبير.

فلقمان الحكيم ابتدأ موعظته لابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله، لأن النفس المعرضة للتزكية والكمال، يجب أن يقدم لها قبل ذلك بتخليتها عن مبادئ الفساد والضلال، ثم إن إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل. وقيمة إخلاص العبودية لله تعالى، هي من أولى وأهمّ القيم التي ينبغي للمربّين غرسها في نفوس متعلميهم، فأولوية

hiragate.com

الأولويات في تربية النشء؛ دعوتهم إلى توحيد الله ونهيهم عن الشرك به سبحانه. ومن هنا فإنه لا مجال للحديث عن باقي القيم الإسلامية إلا بالاستناد إلى الركيزة الكبرى وهي القيم الإيمانية؛ إذ تعدّ هذه القيمة الأعلى والأسمى من بين جميع القيم الأخرى، فضلاً عن أن كل القيم الأخرى تنبثق من القيم الإيمانية كما ينبثق النور من الشمس.

ب–قيمة الإحسان: قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(لقمان:١٦)، فهذه الوصية تصور لمراقبة الله تعالى في كل حين وإحاطته بكل شيء؛ ليغرس الأب المربي في نفس ابنه منذ المراحل الأولى للطفولة غريزةَ المراقبة والحضور والخوف والتدبر والتفكير العميق والاهتمام والعزيمة الصادقة، والمتابعة والتواصل، وذلك في تصوير تهتزُّ له العاطفة ويمتلئ به الوجدان والقلب رهبة ورغبة.

ومن هنا كان لزامًا على الآباء تربية أبنائهم على الإحسان، واستحضار مراقبة الله تعالى لهم في كل وقت وحين، محاولين بذلك إنشاء التوازن المنشود بين تغذية الروح والجسد.

٣– قيم تُوطّد لعلاقة النشء مع نفسه

أ–قيمة أداء فرائض الله: لم يأمر الحكيم ابنه بمجرد الصلاة فقط كما يفعل الكثير من الآباء مع أبنائهم، وإنما أمره بإقامتها، وتعبير الإقامة، له مدلول كبير فيه حضور القلب وإعمال الفكر وصفاء الروح وخشوع الجوارح، وطهارة البدن والنفس، وهو الجو الذي يتيح للقرآن أن يصل إلى غايته، فتسمو بذلك النفس إلى أعلى الدرجات، وتترفع عن الوقوع في المعاصي والزلات.

ب–قيمة الصبر: قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(لقمان:١٧).

جاء في "اللسان" بأن الصبرَ حبسُ النفس عند الجزع، والصبر الثبات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾؛ أي بالثبات على ما أنتم عليه من الإيمان. فطريق العلم محفوف بالصعاب، فوجب على المربّي غرس هذه القيمة في نفوس المتعلمين.

في وصايا لقمان لابنه، جاءت الوصية بالصبر بعد الوصية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي هذا إشارة من الأب لابنه أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، لا بد أن يناله أذى من الناس، فأمره بالصبر. يقول الطاهر بن عاشور موضحًا ذلك: "ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجرّان للقائم بهما معاداة من بعض الناس أو أذى من بعض، فإذا لم يصبر على ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أوشك أن يتركهما".

جـ–قيمة التواضع: قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(لقمان:١٨-١٩).

كل هذه النصائح التي قدمها المربّي الحكيم لابنه، تركز على قيمة كبرى وجب تربية الأبناء عليها، وهي قيمة التواضع الذي يعتبر دليلاً على طهارة النفس وسلامة القلب من أمراض التكبّر والخيلاء، ويمثل بناء التواضع ركنًا مهمًّا في تكوين شخصية الطفل وسلوكه، لأنّ التواضع في جوهره، دعوة عملية إلى المحبّة والمودّة والترابُط، ووسيلة لتحرير القلوب من أغلال الحسد والكراهية.

٤– قيم تُوطِّد لعلاقة النشء مع الآخر

من القيم المهمة أيضًا ضمن وصايا لقمان لابنه، نجد القيم الاجتماعية، وهي جملة من القيم التي توطد لعلاقة الإنسان مع الآخر، أو علاقة الإنسان مع محيطه. وبالنظر في جوهر هذه القيم الاجتماعية وجدتها تؤول إلى قيمة أساسية واحدة وهي قيمة الرسالية والفاعلية في المجتمع.

أ–قيمة الرسالية والفاعلية: قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(لقمان:١٧)؛ انتقل لقمان بابنه إلى درجة أعلى من النصح لا تنحصر نتائجها الإيجابية على الفرد فقط كما كان مع القيم السابقة، بل تتعدى فوائدها إلى المجتمع المحيط به فجاء النصح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآن يطلق عليها علماء التربية التربية بالنظير.

وفي امتثال الأمر فائدتان عظيمتان: أولاهما أنّ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يحرص دائمًا على امتثال

hiragate.com

أمره واجتناب نهيه بداية قبل توجيهه للمنصوح. وفي هذا الصدد يقول صاحب "التحرير والتنوير"، إن الأمر بأن يؤمر بالمعروف ويُنهى عن المنكر، يقتضي إتيان الآمر وانتهاءه في نفسه، لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر، يعلم ما في الأعمال من خير وشر ومصالح ومفاسد، فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره الناس ونهيه إياهم.

ثانيهما أن يكون الإنسان رساليًا في المجتمع، ممتثلاً للأمر الإلهي القاضي بأننا مستخلفون في هذه الأرض لنشر الخيرية بين الناس، فيتربّى الطفل منذ نعومة أظافره على الإسهام في تقدم مجتمعه ورفعته.

٥- قيم تُوطِّد لعلاقته مع والديه وأسرته

أ-قيمة البر وطاعة الوالدين: قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾(لقمان:١٤). ربما يغفل الأبوان عن نصح ابنهما بضرورة برّهما والإحسان إليهما كون ذلك مسألة بديهية عند الطفل، إلا أن الحكيم المربّي خالف الأمر وفي ذلك تنبيه للأسر؛ فقام بتوصية ابنه بالإحسان إلى الوالدين والبرّ بهما، فيكون لهما نِعْم العون ونِعْم الراعي المطيع. فبرّ الوالدين هو الشكر لهما على ما بذلاه من جهد وطاقة في التربية، ورعايتهما والتواضع لهما ولين القول لهما، والإحسان لهما وطاعتهما في غير معصية الله، والدعاء لهما في الحياة وبعد الممات.

وحتى يكون البرّ بهما مكتملاً، فقد ذكّر لقمان ابنه بما تتكبده الأمّ من مشاق جسيمة، من حمْل ورضاع وفطام حتى يستقيم الطفل على عوده، وهذا من شأنه تلْيين قلب الابن ليقبل طواعية على برّ أبويه.

ب-قيمة الشكر لهما: قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(لقمان:١٤). أول من أمر الله تعالى بشكره من الخلْق بعده سبحانه، هما الوالدان، وقرَن الشكر لهما بالشكر له سبحانه، لعظم فضلهما وكبير حقهما. فالله ﷻ وصّى ببرّ الوالدين بعد وصيته الأولى بتوحيده سبحانه وإفراده بالعبادة، وجعل الوصية منه سبحانه ولم يجعلها من لقمان نظرًا لعظم الوصية، فمكانة الوالدين عند الله عظيمة.

جـ-قيمة الاتباع في غير معصية الله: قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا﴾(لقمان:١٥). إلى هنا يسقط واجب الطاعة وتعلو وشيجة العقيدة على كل وشيجة، فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة، ومن إقناع ليغرياه بأن يشرك بالله ما يجهل ألوهيته، فهو مأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق الأول في الطاعة.

وبالتالي وجب على الآباء تنشئة أبنائهم على برّهم والإحسان إليهم ما لم يخالفوا أوامر الله ويشركوا به، ومن وجهة نظري، لا يمكن حصر الشرك هنا في الشرك الأكبر، بل وحتى الشرك الخفي. ويبقى الحل هنا ترسيخ قيمة التواصل بين الطرفين، وقبول رأي الطرف الأقوى دليلاً أيًّا كان أبًا أو ابنًا.

د-قيمة المصاحبة بالمعروف: قال تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾(لقمان:١٥). الاختلاف في العقيدة والأمر بعدم الطاعة في خلافها، لا يُسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة، فإن قيمة مصاحبة الوالدين ومعاشرتهما بالحسنى، قيمة أساسية لا تسقط أبدًا حتى وإن اختلفت العقيدة. وفي هذا تدريب على الصبر والتعامل بالمعروف مع الذين يخالفهم العقيدة على أمل أن يهديهم الله، ويدخلهم في دينه الحنيف للفوز برضوانه تعالى.

تؤكد وصايا لقمان لابنه، أن القيم الإنسانية والخُلُقية تتفق مع فطرة الإنسان في كل عصر ولكل الأجيال؛ فما أوصى به لقمان في الماضي البعيد أقرّه الإسلام، ولا زال يقرّه ويحث عليه في الحياة الدنيا؛ لأنها قيم ثابتة وحيّة ترتبط بوجود الإنسان وحياته. ثم إن هذه القيم هي من الأمور الأساسية التي تحتاجها المؤسسات التربوية في تنشئة الأجيال الصاعدة، وعلى رأسها المؤسسة الأسرية التي تعدّ النواة الأولى للتربية في صلتها منذ البداية بالأبناء. وبالتالي نخلص إلى أن هذه المؤسسة التربوية الأمّ، تحتاج للنهل من معين نصائح لقمان المربّي لابنه، لتجعل منها قواعد تربوية أساسية تسير على منوالها بغية تخريج جيل رائد من الشباب، يقود المجتمع الإسلامي نحو الصلاح والتقدم، ويضعه في الريادة إن شاء المولى القدير. ■

(*) جامعة القاضي عياض، مراكش / المغرب.

hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث
للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
نور الدين صواش

الإخراج الفني
نور الدين محمد
محمد أشرف

منسق الاشتراكات والتوزيع
علاء الكوابري
+201000780841

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-73

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
اشتراك وتوزيع هاتف: +201000780841
hiragate@yahoo.com

IRAQ
Kani Irfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000
hiragate@yahoo.com

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
hiragate@yahoo.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211
hiragate@yahoo.com

للتواصل مع إدارة المجلة | hiragate@yahoo.com
+2 01094338182

زورونا في موقعنا الإلكتروني

تابعونا على صفحاتنا في وسائل التواصل والاجتماعي

حراء.. متعة المعرفة

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com | 00201023201002

@daralinbiath | @daralinbiath

أنتَ الحياة

يا سيّدي منذُ فارقْناك في تيهِ
وقد ألمّتْ بِنَا أحوالُ تشْويهِ
بستانُكَ انطَفأتْ في العيْن بهْجَتُهُ
وورْدُهُ قَدْ زَوَى؛ شوْقًا لراعيهِ

***

ISSN 2357-0229
www.hiragate.com